INSTITUT DU MONDE ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal PRIZE

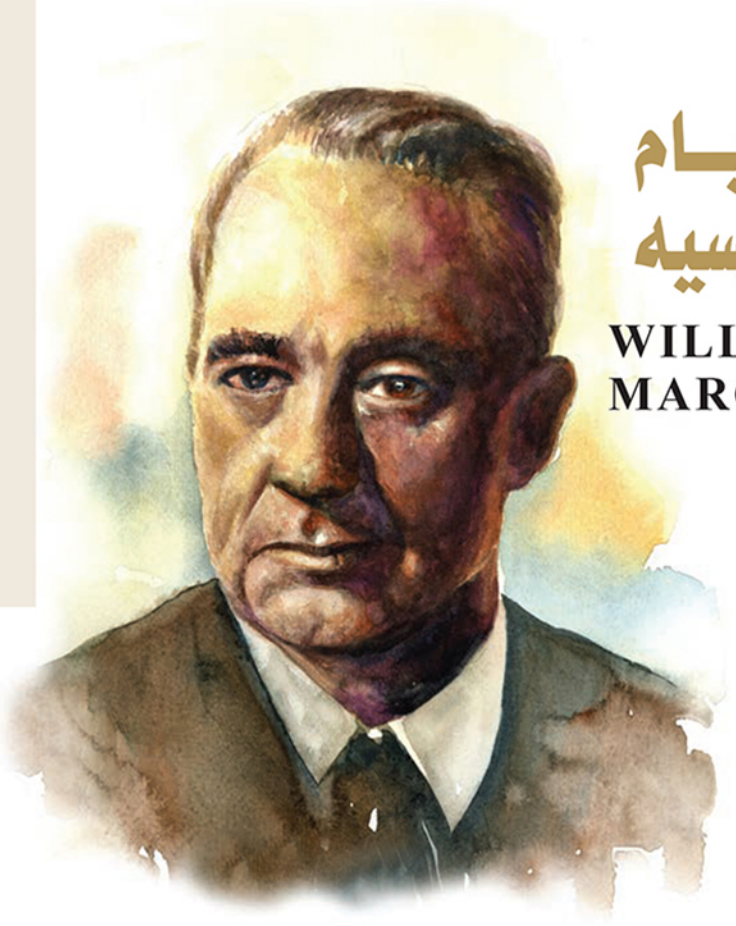

ويليام مارسيه
WILLIAM MARÇAIS

فاطمة البكوش

100 كتاب وكتاب
16

ويليام مارسيه

الكتاب : ويليام مارسيه
المؤلف : **فاطمة البكوش**
الطبعة : الأولى 2020
عدد الصفحات : 128
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2020MO2780
الترقيم الدولي : 978-9920-627-57-3

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب

6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان

الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

ويليام مارسيه

فاطمة البكوش

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

"الكلمة العربية كالعود، إذا نقرْتَ على أحد أوتاره
رنّت لديك جميع الأوتار، وخفقت"

ويليام مارسيه

المحتويات

عتبـــة........................ 9

مقدمة........................ 11

الفصل الأول : حياة ويليام مارسيه ومسيرته العلمية....... 15

1- نشأته وحياته الدراسيّة.............. 15

2- مرحلة تكوينه في اللغة العربية............ 17

3- مهامه العلمية والعملية.............. 18

الفصل الثاني : ويليام مارسيه اللساني: أهمّ أطروحاته

العلمية في دراسة اللغة العربية........... 22

1- منهجه في البحث اللسانيّ.............. 22

2- مارسيه ومفهوم الازدواجية اللغوية.......... 28

3- اللغة العربية عند مارسيه بين المنطوق والمكتوب... 31

4- اللغة العربية بنظرة الأجنبيّ 40

5- في مقارنته بين العربية والفرنسية 47

الفصل الثالث : عرض لأهمّ كتب مارسيه وأطروحاته

الفكرية في اللغة العربية 56

1- "اللغة العربية"، من كتاب "مقالات ومحاضرات"... 58

2- قراءة مارسيه لتاريخ اللهجات في المغرب الكبير: مقال "كيف حصل تعريب شمال أفريقيا؟"....... 67
3- "المعجمية العربية"، من كتاب "مقالات ومحاضرات"................................... 75
4- نصوص عربية من تكرونة....................... 90
5- نصوص عربية من طنجة...................... 97
مختارات من كتابات مارسيه الفكرية والإبداعية 100
مختارات مما كُتب عن مارسيه 115
أهمّ مؤلفات مارسيه والمواقع الإلكترونية المتعلقة به....... 125
المراجع المعتمدة في هذا الكتاب حول ويليام مارسيه..... 127

عتبـة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزًا مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئه الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

أمين عام الجائزة
عبد العزيز السبيل

مدير عام المعهد
معجب الزهراني

مقدمة

ويليام مارسيه (William Marçais) مستعرب فرنسي، ككلّ المستعربين من أبناء جيله، كان مغرماً بالأخذ من كلّ شيء بطرف، فاهتمّ - علاوة على اللغة العربيّة الفصحى واللّهجات المنبثقة عنها في المغرب العربي- بنشأة مدينة تلمسان الجزائرية، ومعالمها، وتطوّرها التاريخي، كما انشغل بأصول النثر العربي، وتطوّره، ومقارنة منزلته بمنزلة الشعر لدى عرب الجزيرة قبل الإسلام وبعده[1]، وبالمرأة من خلال ألف ليلة وليلة[2]، وكذلك ببخلاء الجاحظ، وله في هذا الكتاب ومؤلِّفه وجهة نظر متميّزة، أشار إليها شارل بيلا (Charles Pellat) - كما سنرى لاحقاً - في مقدّمة ترجمته لكتاب البخلاء إلى الفرنسيّة[3]، إلى غير ذلك من المواضيع الأخرى المتفرّقة، التي وإنْ لم تعدم القيمة العلميّة، فإنّه لم يبلغ فيها مبلغاً عظيماً من التميّز والأصالة

---

(1) William Marçais, «Les origines de la prose arabe » in *Articles et conférences,* Paris, Publications de l'Institut d'Etudes Orientales, Faculté des lettres d'Alger, Librairie d'Amérique et d'orient, 1961, pp.49-57

(2) William Marçais, « La femme dans les mille et nuits » in *Ibid,* pp215-220

(3) Charles Pellat « *Le Livre des Avares*, Traduction et notes par Charles Pellat, Beyrouth, commission internationale pour la traduction des chefs-d'œuvres- Paris, Maisonneuve, 1951, p8.

والإشعاع كما بلغ في مؤلّفاته اللّسانيّة التي خصّصها للغة العربيّة ومشتقّاتها من اللهجات المغاربيّة في تونس والجزائر والمغرب الأقصى. لم يبلغ مارسيه في اهتمامه بألف ليلة وليلة من الدقّة والعمق والشمول ما بلغه أندريه ميكال (André Miquel) الذي ترجم ألف ليلة وليلة إلى الفرنسيّة، وانشغل بدراسته[1]، ولم يصل في فهمه لكتاب البخلاء للجاحظ ما وصله شارل بيلا الذي قضّى سنوات يقرأ كتاب البخلاء ويمحّص فيه وينقّر في ألفاظه وتراكيبه وتعابيره، حتى يترجمه إلى الفرنسيّة على أحسن وجه. إلّا أنّه على العكس من ذلك، كان بارعاً في أبحاثه في اللغة العربيّة ولهجاتها، لسانيّاً متمرّساً، يتابع اللفظ العربي وهو ينتقل من المعجم إلى التاريخ، ومن المجرّد إلى المحسوس، كما يبدو في الحياة اليوميّة في استعمال الإنسان للّغة في سياق اجتماعي وثقافي وجغرافي مخصوص لدى عرب شمال أفريقيا، جامعاً على هذا النحو - بشكل متفرّد، لا يشبهه فيه أحد من المستعربين الفرنسيين من أبناء جيله - بين اختصاصين، ألا وهما اللسانيات والأنثروبولوجيا (والأنثروبولوجيا الاجتماعيّة)، فكان لذلك رائداً في المدرسة الاستعرابيّة الفرنسيّة في هذا المجال. وعليه رأينا - التماساً للفائدة، ورغبة منّا في أن نلفت الانتباه إلى الإضافة التي أنجزها ويليام مارسيه في حقل الدراسات

(1) André Miquel, *Sept contes de Mille et Une Nuit (Ou il n'ya pas des Contes innocents),* Paris, Sindbad, 1981, 300 pages

العربيّة الإسلاميّة، معرضين على ما اشترك فيه مع غيره من المستعربين، ولم يبلغ فيه ما بلغوه من دقّة وشمول - أن ننشغل في هذا الكتاب على وجه الخصوص - بآرائه في اللغة العربيّة ولهجاتها، وما جادت به قريحته من جديد لم يسبقه فيه أحد في المدرسة الاستعرابيّة الفرنسيّة.

انشغل مارسيه باللغة العربية معجما ودلالة واشتقاقاً وصرفاً واستعمالاً، وبكونها لغة مفعمة بالحياة، متطورة بتطوّر مشاغل المتكلّمين بها، واحتياجاتهم في تسمية الأشياء الجديدة التي لا عهد لهم بها، وفي التعبير عمّا يختلج في نفوسهم من مشاعر مستحدثة، فاللغة ذاكرة شأنها شأن مستعمليها، بها يتمّ ترسيخ هويّتهم الثقافيّة، ومن خلالها يكتب الإنسان تاريخه، وهو ما جعل مارسيه ينقّب في استعمال العربية في شتى وجوهها، رابطاً بين ممارسة اللغة وتطبيقها، وبين تطوّر الأمة في مسارها التاريخي، وهي تخطّ بخطوط متفاوتة الطول مسيرتها اللغوية والسياسية والثقافية والاجتماعية، لتترجم من خلال ذلك نسيجها الحضاري. فهي لغة الحضارة العربية الإسلامية، كما أعرب عن ذلك مارسيه في قوله: "إنّ اللغة العربية - وهي تستند إلى عدة لهجات قديمة، مستمدّة من القرآن أولاً، ومن الشعر ثانياً، الذي تشكَّل في شبه الجزيرة العربية نحو القرنين الخامس والسابع ميلاديًّا - قد اعتُمدَتْ لغة الحضارة الإسلامية، وقد بُسّطت ووُحِّدَتْ من خلال الجهد اللغوي الهائل الذي قام به كلّ من النحويين

والمعجميين وجامعي القصائد القديمة".[1] وهكذا طفق مارسيه من خلال بحوثه اللّسانية، يرصد اللغة العربيّة في صيرورتها التاريخيّة قبل الإسلام وبعده، وهي تنتقل عبر القرون في فضاء رحب مترامي الأطراف، من شبه الجزيرة العربيّة وعلى ضفاف الخليج العربي إلى ضفاف كلّ من البحر الأبيض المتوسّط والمحيط الأطلسي (بحر الظلمات) كما كان يسمّيه العرب القدامى، يتابعها في القرى والبوادي، كما يتابعها داخل أسوار المدن، وعلى ألسنة الخواصّ والعوامّ، لا يثبتها في المعجم إلّا ليرقبها وهي تغادره إلى اليوميّ، إلى معترك الحياة، معبّرةً عن شواغل المتكلّمين بها في مجتمعهم، فكان له السبق - تبعاً لذلك - في تأسيس علم اجتماع اللسانيات العربية، بل لنقل انثروبولوجيا اللّسانيات العربيّة، وهو إنجاز علميّ يُحسب له، وإليه يعود الفضل في تركيز دعائمه، علم جديد مازال إلى حدّ اليوم - رغم مجهودات مارسيه في السياق الفرنسي - يتعثّر في خطواته الأولى في العالم العربي، ولم يحظ بالعناية اللّازمة في الجامعات العربيّة.

(1) W. Marçais, La langue arabe, Rapport d'inspection générale publié par l'Enseignement public, revue pédagogique, Paris, Delagrave, n° 12 (décembre 1930), p. 83

الفصل الأوّل
حياة ويليام مارسيه ومسيرته العلمية

1 ـ نشأته وحياته الدراسيّة:

وُلد ويليام مارسيه سنة 1872، بمدينة ران (Rennes) الواقعة في غرب فرنسا، حيث نشأ وترعرع في جمال طبيعة البلدة وهدوئها. وهو ينتمي إلى عائلة محاربين، فجدّه وإخوته كانوا من جنود نابليون، غير أنّ مارسيه لم يقتف خطوات أجداده العسكريّة، ولم يكن يحلم بأن يصبح جنديّاً يقضّي حياته في الثكنات العسكريّة أو في ساحات الوغى، كما يقول، وإنّما كانت هناك ساحات أخرى تشدّه إليها شدّاً، هي ساحات العلم والمعرفة[1].

---

(1) انظر حول نشأة مارسيه :

Christophe Charle, Eva Telkès « Marçais (William)» in Publications de l'Institut national de recherche pédagogique Année 1988 3 pp. 152-154 (Fait partie d'un numéro thématique: Les professeurs du Collège de France – Dictionnaire biographique 1901-1939)

وانظر كذلك:

Guy Caplat "MARCAIS (William, Ambroise)" in *Publications de l'Institut national de recherche pédagogique* Année 1997 13 pp. 393-396

Fait partie d'un numéro thématique : L'Inspection générale de l'Instruction publique au XX^{e} siècle. Dictionnaire biographique des inspecteurs généraux et des inspecteurs de l'Académie de Paris, 1914-1939

قضّى مارسيه طفولته وشبابه الأوّل في مدينة ران، حيث يقطن والداه. بمناسبة الاحتفال بمرور مائة سنة على تأسيس الجمعية الأكيولوجية لهذه المدينة، أشار في مداخلة، اختار لها عنوان "ذكريات من ران وأفريقيا"، برهافة حسّه المعهودة ودقّته في سرد الأحداث التي يُشهد له بها، وبروحه الفكهة المتندّرة، إلى بساطة الحياة، ونمط العيش السهل الذي ولّى دون رجعة، وعهدته ران كونها عاصمة صغيرة لمقاطعة من مقاطعات الشمال الفرنسي، كما عاش فيها في العقدين الأوّلين من حياته. كانت ران بمحيطها المتميز منفتحة ببنيتها الحضرية على عالم الطبيعة الرحب، الذي يطوّقها ويتداخل معها بحقوله الخضراء الجميلة، بحيث لا يشعر سكّانها وزائروها بثقل المدينة على نفوسهم، وبوطأة نمط العيش الحضري، وإكراهاته الكثيرة على حياتهم اليوميّة. يقول ألفرد مارلان (Alfred Merlin): "إنّه لإمتاع ومؤانسة أن يتابع المرء ويليام مارسيه وهو يرسم لوحات رائعة لمدينته، كما عاش فيها منذ زمن طويل، مدينة يتمتّع أهلها برغد العيش وبحياة هادئة مطمئنة"[1].

وبحصوله على شهادة ختم الدروس الثانويّة، توجّه مارسيه إلى دراسة القانون في كلية الحقوق بالجامعة. وعندما أتمّ المرحلة

(1) Merlin, Alfred «Notice sur la vie et les travaux de M. William Marçais, membre de l'Académie » in *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* Année 1957 101-4 p403

الأولى، بإحرازه الإجازة في هذا الاختصاص، سنة 1894، رغب لبرهة من الزمن أن ينخرط في العمل الدبلوماسي والقنصلي، ولكن ولعه بمؤلفات رينان[1] (Renan) التي كان لها مفعول السحر على نفسه، جعله ينجذب إلى دراسة اللغات السامية بصفة عامة، وإلى اللغة العربيّة - على وجه الخصوص - التي انتقل من أجلها إلى باريس، في معهد اللغات الشرقية، حيث تابع في هذه اللغة دروس الأستاذ درمبورغ (Deremboug)[2]، وقد اهتمّ خصوصاً باللغة الأمازيغية واللهجة العربية المغربية.

2 ـ مرحلة تكوينه في اللغة العربية:

لقد أُغرم مارسيه باللّغة العربيّة منذ بدايات اكتشافه لها، وبرهن على رغبة جامحة في تعلّمها، سواء في شكلها الفصيح أو في اللهجات المتعدّدة المنبثقة عنها. وقد لاحظ أستاذاه نبوغه وولعه بهذه اللغة، فشجّعاه على التقدّم بطلب للانضمام إلى مؤسسة تيار (Thiers) التي كانت آنذاك في أوج إشعاعها، وهي

(1) جوزاف إرنست رينان (1823- 1892): كاتب فرنسي متعدّد الاختصاصات والمواهب، لغوي وفيلسوف ومؤرّخ، عُرف بدراساته حول الأديان التي يصلها بجذورها الجغرافيّة والثقافية والإثنولوجيّة ويُعدّ كتابه حول تاريخ وأصول المسيحيّة مرجعاً في تاريخ هذه الديانة إلى الآن.

(2) جوزيف درمبورغ (1811-1895): مستشرق ومؤرّخ فرنسي من أصول ألمانية.

مؤسسة كانت في أواخر القرن التاسع عشر، تستقطب الطلبة النوابغ في شتى الاختصاصات، وتمدّهم بمنح مالية وتسهر على رعايتهم، للقيام ببحوثهم، كلٌّ حسب اختصاصه، في ظروف ملائمة. وقد حظي مطلب مارسيه بالقبول، وكان لانضوائه تحت هذه المؤسّسة العريقة أثر كبير على مساره العلمي، باحثاً ومدرّساً[1]. ففي خلال السنوات الثلاث التي قضاها فيها، ينعم برعايتها وإشرافها، استطاع ويليام الشاب، بنجاح وتميّز، أن يجمع بين بحوثه في المجال التشريعي والقانوني ودراسته للغة العربيّة وآدابها وحضارتها، فكان من ثمرات هذا التزاوج بين الاختصاصين، أن حصل مارسيه على شهادة الدكتوراه سنة 1898، في القانون، برسالة أنجزها في الفقه الإسلامي، بعنوان "الوالدان والأقارب الورثة".

3 ـ مهامه العلمية والعملية:

في سنة 1898، سنة حصوله على الدكتوراه، وبمجرّد انتهاء مهمّته في مؤسّسة تيار، عُيّن ويليام مارسيه مديراً لمدرسة تلمسان في شرق الجزائر، حيث عكف هنالك على معرفة خصوصيات الجهة اللغوية والثقافية والإثنيّة التي قضى سنوات

(1) Perrin, Charles-Edmond « Éloge funèbre de M. William Marçais, member ordinaire » in *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* Année 1956 100-3 p. 364

طويلة من نشاطه العلمي في دراستها، فمكّنه هذا المنصب من الاتصال بالمعلّمين العرب فيها، وتعلّم اللغة العربية واللغة البربرية. بعد هذه التجربة، التي امتدّت لستّ سنوات من إقامته في تلمسان، انتقل مارسيه في نفس الوظيفة للسهر على مدرسة الجزائر العاصمة، سنة 1909، ثمّ متفقّداً عاماً لتعليم البلديين، أي أهالي البلاد الأصليين، قبل أن يشغل وظيفة مدير المعهد العالي لتعليم اللغة العربيّة وآدابها، في تونس، سنة 1913.

وفي كلّ هذه المهام، أنيطت بعهدة مارسيه الإشراف على تكوين ثلّة من أهالي البلاد المسلمين لتقلّد وظائف إداريّة وحكوميّة وقضائيّة، هذا علاوة على البحث عن حلول للمشكلات التي طرحها تنظيم التعليم في المدارس العموميّة الفرنسيّة، الموجّه إلى أبناء العرب والمسلمين.

عمل مديراً لمدرسة تلمسان، وأستاذاً فيها، وهي إحدى المدارس العربية الثلاث التي أنشأتها فرنسا لتخريج مساعدين لها في أعمالها في إدارة البلاد. اّتصل بعلماء الجزائر وتونس والمغرب، ودرس لهجات المنطقة[1].

وبدخول القرن العشرين، ظهر تحوّل واضح في الاستشراق الفرنسي، فقد سُمح بإنشاء المدرسة العلمية للدراسات العليا في

(1) Merlin, Alfred « Notice sur la vie et les travaux de M. William Marçais, membre de l'Académie » in *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* Année 1957 101-4, p.404

باريس، مما أدى إلى تجديدِ المواد المتنوعة والمتخصصة في الدراســـات الاستشراقيـــة، وظهر أساتذة متميزون، من أمثال: "لويس ماسينيون"[1]، و"ويليام مارسيه "نفسه، وشقيقه الأصغر "جورج مارسيه" الذي اقتفى خطواته مستعرباً متميّزاً مثله[2]، وغيرهم من الأساتذة والباحثين في اللّغة العربيّة وآدابها، وتأسست بعد الحرب العالمية الثانية عدَّة كراسيّ لتدريس اللغة

---

(1) يشيد لوي ماسينيون بوليام مارسيه وبإسهامه في إشعاع اختصاص اللغة العربيّة في المؤسّسات الأكاديميّة الفرنسيّة في باريس، وكذلك بتجربته في مدرس تلمسان التي أدارها باقتدار يدفعه إلى ذلك محبّته لطلبته العرب المسلمين: انظر:

Louis Massignon "Maurice Gaudefroy-Demombynes (1862-1957) " in *Annuaires de l'École pratique des hautes études* Année 1957 66 pp. 44-47

(2) أحياناً يقع الخلط بين وليام وجورج مارسيه، ولذلك يُستحسن ألّا يُذكر أحدهما بالاقتصار على اللقب العائلي، دون ذكر الاسم. تعاون الشقيقان، وأنجزا مثلاً مؤلّفاً حول تلمسان: انظر:

Jacqueton Gilbert « William Marçais et Georges Marçais. *Les Monuments arabes de Tlemcen » (Service des monuments historiques de l'Algérie)* , Bibliothèque de l'École des chartes Année 1904 65 pp. 611-615, Réné Dussaud « Georges Marçais. — *Tlemcen* (Les Villes d'art célèbres) » in *Syria*. Archéologie, Art et histoire Année 1952 29-3-4 p. 3

لقد اهتمّ جورج - بعد وفاة شقيقه وليام - بالأعمال والبحوث التي أنجزها شقيقه، بالعرض والتعريف : انظر:

Gaston Weit «Témoignage: Livres offerts» in *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* Année 1962 106-1 pp. 33-35

العربية والأدب والحضارة والتاريخ والفلسفة الإسلامية.

في أثناء الحرب العالميّة الأولى، عُيِّن مارسيه موظّفاً في مكتب شؤون الأهالي بوزارة الحرب الفرنسيّة، ليدشّن بذلك مرحلة باريسيّة خصبة في مسيرته العلميّة، بقبوله أوّلاً أن يضطلع بمهمّة تدريس اللغة العربيّة الدارجة في معهد اللغات الشرقيّة الحيّة، معيداً من سنة 1916 إلى سنة 1920، وهي السنة التي ارتقى فيها إلى رتبة أستاذ بالتوازي مع نشاطه في المعهد التطبيقي للدراسات العليا (EPHE) التابع لجامعة السوربون، الذي التحق به منذ سنة 1919، وصار مديراً للدراسات العربية والإسلاميّة فيه. وفي سنة 1927، غادر مارسيه معهد اللغات الشرقية، لينضمّ إلى معهد فرنسا العريق (Collège de France)، الذي لا يُدرَّس فيه إلّا صفوة العلماء الفرنسيين، وظلّ هنالك مدرّساً وباحثاً ومديراً للدراسات، حتّى تقاعد عن العمل في سنة 1942، ولكنّه لم يكفّ عن النشاط بحثاً ومشاركة في المؤتمرات العلميّة، حتّى وافته المنيّة سنة 1956، وقد كان لوفاته الأثر الكبير على المستعربين الفرنسيين الذين أجمعوا على أنّه بفقدانه خسرت اللّغة العربيّة أحد أساتذتها الكبار في فرنسا[1].

(1) Robert, Louis "Discours du Président, séance publique annuelle" in *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* Année 1956 100-4 pp. 432-438

الفصل الثاني

مارسيه اللسانيّ: أهمّ أطروحاته في دراسة اللغة العربية

1 ـ منهجه في البحث اللسانيّ:

لقد اهتمّ ويليام مارسيه، بحكم اختصاصه بالحضارة العربيّة الإسلاميّة بصفة عامة، بنشأة المدن وتطوّرها، في مثل الكتاب الذي ألّفه شراكة مع شقيقه جورج، حول مدينة تلمسان الجزائريّة، وكذلك في العديد من مقالاته حول النثر العربي، وحول بعض نوادر الجاحظ في كتاب الحيوان(1)، وله رأي متميّز أشار إليه شارل بيلا حول هذا الأديب العربي وكتابه البخلاء(2). غير أنّ ما ميّز مارسيه هو اهتمامه الكبير باللغة العربية(3) واللهجات، وتوجّهه

---

(1) William Maçrais « Un prototype arabe du IXe siècle du thème de l'Avocat Patelin Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres Année 1930 74-1 p. 63

(2) Charles Pellat « *Le Livre des Avares*, Traduction et notes par Charles Pellat, Beyrouth, commission internationale pour la traduction des chefs-d'œuvres- Paris, Maisonneuve, 1951, p8.

(3) انظر مثلاً مداخلته حول اللغة العربيّة في الأكاديمية الفرنسيّة للآداب والفنون:

=

اللسانيّ الذي جعله مرجعاً مهمّاً في دراسة اللهجات العربية. فهو العالم المغرم باللغة العربية وبالمغرب العربي، وهو اللسانيّ المستعرب المتميّز، علاوة على أنه مختصّ في اللهجات المغربية، كما تبيّن ذلك آثاره في النصف الثاني من القرن العشرين، التي دُرّست في الستينات، في مدرسة اللغات، للمهتمّين باللغة العربية[1] واللهجات المغربية والمختصّين فيها. وقد ثبت تميّز ويليام مارسيه بكونه مستعرباً ومختصّاً في اللهجات فور الإجماع ببراعته المثالية في الجمع بين اللغة العربية الفصحى واللهجات، وألفته الطويلة مع السكان الذين يتحدثونها، ومعرفته العميقة بمختلف إنتاجاتهم الثقافية وأنماط حياتهم[2].

وقد مثّل منهجه الدقيق والصارم في التّقويم الصوتي للغة

= Adrien Barthélémy William Marçais.—Langue arabe Annuaires de l'École pratique des hautes études XXI Année 1924 1924 pp. 73-74

(1) بالإضافة إلى معرفته باللغة الأمازيغيّة واللغة العربيّة الفصحى بلهجاتها المتعدّدة، كان وليام مارسيه على معرفة باللغات الأفريقية جنوب الصحراء، كما تشهد بذلك بعض مداخلاته في الأكاديمية الفرنسيّة للآداب والفنون : انظر:

« Informations diverses » [liminaire] in *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* Année 1939 83-1 pp. 75-77

(2) Arlette Roth-Geuthner, «Un linguiste arabisant émérite», in Michèle Junqua et Odile Kerouani avec la collaboration de Eveline Cortet, Deux savants passionnés du Maghreb, Hommage à William et Georges Marçais, Institut du Monde Arabe, Bibliothèque UNESCO, p. 34

العربية المتحدّث بها نموذجاً متميزاً لا يضاهيه تقريباً أيّ نموذج آخر بالنسبة إلى الطلبة والدارسين لآثار مارسيه، ممّا جعله يتّخذ مكانة عالية، ويُعدّ مرجعاً أساسياً في دراسة اللهجات العربية. ولا يمكن الحديث عن مارسيه لسانياً دون التذكير بدراساته الوصفية التي قام بها مع مارسيل كوهن[1] (Marcel Cohen)، حول حديث يهود الجزائر التي ظهرت تحديداً في العقد الأول من القرن، وقد قام الاثنان سنة 1910 بترجمة معجم اللسانيات الساميّة للعالم، والمستعرب الألماني صاحب كتاب تاريخ الأدب العربي الشهير كارل بروكلمان (Carl Brockelmann).[2] ويمكن أن نذكر أن قراءة تاريخ اللغات الساميّة لإرنست رينان ومسألة اللسانيات لأبال هوفيلاك[3] (Abel Hovelacque) التي حسب شهادة مارسيه نفسه قد حدّدتا مهنته أو توجّهه بكونه لسانيّاً. ومن

(1) لُغوي فرنسي من أهم المتخصصين في اللغات السامية، ولا سيما اللغات السامية الإثيوبية، درس اللغة الفرنسية، وقدم إسهامات كبيرة لعلم اللغويات بصورة عامة، وكان بحث تخرجه عن اللهجة العربية ليهود الجزائر. له العديد من الكتب حول اللغويات، ومن أهمّ مؤلفاته "نحو سوسيولوجيا اللغة" (Pour une sociologie du langage) .
انظر كتابه:
Marcel Cohen, *Pour une sociologie du langage*. Paris, Albin Michel, s. d. [1956] ; 1 vol. in-8°, p.396

(2) انظر :
W. Marçais et M. Cohen, Précis de linguistique sémitique, traduit de l'allemand, Paris, Librairie Paul Geuthner, 1910

(3) أبال هوفيلاك (1843- 1896): لسانيّ وانثروبولوجي فرنسي وهو مختصّ في اللسانيات الطبيعية والأنثروبولوجية.

الطبيعي أن يتأثر مارسيه بهوفيلاك الحائز على كرسي اللسانيات في مدرسة الأنثروبولوجيا التي أسسها بروكا[1] (Broca)، ولعلّ هذا ما يفسّر خروجه من صرامة الفيلولوجيا، وانفتاحه على الأنثروبولوجيا الوصفية وعلم الاجتماع.

هذا بالإضافة إلى ما تمثله نصوصه وشروحها الدقيقة[2] من شواهد مرجعية جديرة بالاهتمام، وهي، إن دلّت على شيء، فتدلّ على معرفة مارسيه الموسّعة التي وُضعت في إطارها التاريخي في سيرته العلمية الاجتماعية واللسانية. وقد تكهّن بعض الأساتذة الفرنسيين باختفاء اللهجات أمام الانتشار الواسع المدى للّغة العربية المعاصرة الأساسية، وهي الفصحى. وقد وقع تأييد هذه الفكرة ومشاركتها، خاصة من قبل النخب التي شهدت حداثة الاستقلال في بلدانها المستقلّة حديثاً من أجل تعزيز الهوية العربية، وتأصيل انتمائهم الذي تظهر أولى مراحله في اللغة، حيث يمثّل هذا التطور تجديد شرعية مثالية.

غير أنّ مارسيه انصبّ اهتمامه على اللهجات العربية المتحدث

---

(1) بول بروكا (1824–1880): انثروبولوجي فرنسي، ومؤسس مدرسة الأنثروبولوجيا الفرنسية.

(2) انظر النصوص العربية التي ألفها حول طنجة وتكرونة وحامة قابس:
Textes arabes de Tanger, transcription, traduction annotée, glossaire (1911).
Textes arabes de Takroûna, transcription, traduction annotée, glossaire (1925).
Trois Textes Arabes D'EL-Hamma de Gabès, (avec Jellouli Farès) , J. Dupuis, Journal Asiatique , 1931

بها، مُبرِزاً حضورها القويّ في الواقع المعيش، وهي التي كانت مهمَلة وبعيدة عن الدرس والبحث، وقد أَوْلى اهتماماً كبيراً للغة المنطوقة، فكان الكلام الشفويّ محلّ بحثه وشغفه. وكان الوجه الرئيس الذي يُعدّ مثالاً في هذه الدراسات في زمن احتكار البنيوية والفونولوجيا في براغ هو جان كنتينو[1] (Jean Cantineau)، الذي يُعدّ أول قارئ لفنولوجيا العربية الفصحى. ويعود تحديد مصطلح الفنولوجيا (phonologie) إلى رائد اللسانيات الحديثة فردينان دي سوسير (F. De Saussure) الذي حدّد هذا المفهوم، وميّزه عن مفهوم علم الأصوات (la phonétique)[2]. وقد أَوْلى

(1) جان كانتينو (Cantineau, J) (1899- 1956) درس العربية في باريس، وعُيّن عضواً في المعهد الفرنسي بدمشق، (1928-1932)، وقد عنى باللهجات العربية، ولا سيما لهجات بادية الشام، حيث قضى بين البدو زمناً طويلاً. ثم عُيّن أستاذاً لفقه اللغات العام واللغات السامية في كلية الآداب بالجزائر ثم أستاذاً في مدرسة اللغات الشرقية. من أهم أعماله في اللغة العربية: "دروس في علم أصوات العربية"، نقله إلى العربية وذّيله بمعجم صوتي فرنسي عربي صالح القرمادي.

(2) انظر: F. De Saussure, Cours de linguistique générale, Paris, Payot, 1975

كثيراً ما كان يقع الخلط بين المفهومين في دراسة الأصوات، إلّا أنّه يجب التمييز بينهما: فعلم الأصوات هو علم تأريخي، وأصحاب هذا العلم يحللون الأحداث والتغيرات الصوتية، وعلمهم يتحرك عبر الزمان، أمّا الفنولوجيا فهي خارجة عن نطاق الزمان، لأنّ ألية تقطيع الأصوات تبقى دوماً هي نفسها. ولا سبيل إلى الخلط بين هذين المبحثين، ولا حتى المقابلة بينهما. فعلم الأصوات قسم أساسي من أقسام علم اللغة، أمّا الفنولوجيا فهي مادة مساعدة تابعة للفظ وليس للغة، ولكن لا يمكن أن =

مارسيه اهتماماً كبيراً في دراسته للهجات للجانب الصوتي، إذ قام بوضع نظام شامل ومتطوّر لمعرفة الصوت وتصنيفه، ممّا أمكنه- من خلال بعض التجارب في دراسة توزيع الوحدات الصوتية[1]- من استخراج الأنظمة الفنولوجية لمجموع اللهجات التي درسها، ووضّحها كما لو أنه بطريقة أو بأخرى كانت هناك فنولوجيا كامنة في معالجاته التي اقترحها، وكأنه خلق نظاماً خاصاً به داخل نظام عامّ، وهو غالباً ما نجده عند اللساني الذي يجد نفسه وهو يبحث داخل نظام لغويّ ما يرسم لنفسه نظاماً من خلاله يتوصل إلى الأهداف التي وضعها عند بداية دراسته، وبذلك يكون له منهجه الخاصّ الذي يصبح بدوره نظاماً متبعاً في تحديد مسألة ما وفهمها.

= نكر فضلها في تمثيل الأصوات وتقطيعها في الكتابة الفنولوجية التي من شأنها أن تبرز الجانب الصوتي للفظ وما يتضمنه من دلالة فحسب، وإنما ما أنتجته من مفاهيم أساسية في الدراسة الصوتمية أو الفنولوجية، أبرزها مفهوم الصوتم (phonème) الذي أورده دي سوسير، وقد حدّده بكونه جملة الانطباعات الصوتية والحركات التقطيعية للوحدة الصوتية المسموعة والوحدة الصوتية المنطوقة، وتكيّف كلّ منهما الأخرى، ويبدو الصوتم وحدة متشعّبة لها اتصال بكلتا السلسلتين. انظر حول هذه المسألة:

F. De Saussure, Cours de linguistique générale, Paris, Payot, 1975; p33.

(1) انظر مثلاً في تحديد الأصوات ومخارج الحروف، في النصوص المتعلقة بلهجة الحامة في كتابه "ثلاثة نصوص عربية من حامة قابس":

W. Marçais, Trois Textes Arabes D'EL-Hamma de Gabès, (avec Jellouli Farès) , J. Dupuis, Journal Asiatique , 1931

2 ـ ويليام مارسيه ومفهوم الازدواجية اللغوية (la diglossie)

في اهتمامه باللغة العربية، بحث مارسيه فيما يميّزها ويجعلها مغرية بالبحث والتنقير مركّزاً على جذورها وأصواتها وحروفها، ولم يهمل ما يميّز لهجاتها المختلفة، متسائلاً عن إشكالية العربية: ما الذي نأخذه بعين الاعتبار، هل اللغة الفصحى، أم العامية التي تمثّل قسماً كبيراً من اللهجات؟

إذا كانت اللغة نظاما من الدلائل يعبّر عمّا للإنسان من أفكار - على حدّ تعبير دي سوسير - فإنّ هذا النظام يُدرَس ويُقرأ ويُكتب ويُعاش ممارسةً وتطبيقاً، وهذا ما ذهب إليه ويليام مارسيه، وهو المتمرّس والمتقن الجيّد للغة العربية، بأن غاص في جواهرها، باحثاً عن أصواتها وحروفها، مميّزاً بين نوعين مختلفين من العربية: المنطوق الشفويّ العاميّ المهيمن في التواصل اليومي والتعبير التخاطبي من جهة، والمكتوب الرسميّ الفصيح، فوجد نفسه بين لهجات عاميّة متعدّدة داخل القطر الواحد، وبين عربية فصحى موحّدة بين جميع الأقطار العربية. وهو ما عبّر عنه بمفهوم الازدواجية اللغوية[1] في العربية (la diglossie arabe) القائمة

---

(1) لقد خصّص مارسيه عنواناً مستقلاً في مقاله حول اللغة العربية لمفهوم الازدواجية اللغوية، وهو "الازدواجية اللغوية العربية"، وهو صاحب المصطلح الذي غدا متواتراً في الدراسات اللسانية والأدبية، ليعبّر عن ثنائية ملتبسة في الاستعمال، وتمثل اللغة العربية بين العامية والفصحى أكثر نموذج لمفهوم الازدواجية اللغوية.
انظر: =

على ثنائية ما يُقال أو ما يُتحدّث به وما يُكتب، ما يُقال في التواصل اليوميّ وهو الذي يُعاش، وما يُكتب في التواصل الرسمي من خطابات ورسائل وفي الجرائد والمجلات والكتب الأدبية والعلمية وغيرها، أي كلّ ما يدوَّن ويمثّل إنتاجاً كتابياً موجّهاً إلى القارئ الذي يقرأ لغة لا يمارسها في حياته اليومية، ممّا يخلق هذه الازدواجية اللغوية التي هي حسب مارسيه "التنافس بين لغة أدبيّة مكتوبة، ولغة عاميّة شائعة"[1].

فاللغة بكونها وسيلة التعبير عن الأفكار والتواصل، وصورة من صور الهوية والثقافة، بل هي الهوية والثقافة تحمل إرث الأمة وتاريخها وتراثها، لن تكون إلّا كائناً حيّا متطوّراً ومتغيّراً شأن مستعمليها وتاريخها. واللغة متطوّرة بطبعها، قابلة للتغيير والتجدّد، ولا تقبل بالثبات والجمود، فلا نراها في ثوب واحد، بل تجدّد أثوابها، وتتماشى مع التطوّر التاريخي والمعجمي في صيرورة دائمة، يتعدّد استعمالها، ويختلف حتى بالنسبة إلى الفرد، وهو ما عبّر عنه مارسيه بالازدواجية اللغوية التي تزخر بها اللغة العربية الجامعة بين لهجات عاميّة تخصّ الشفويّ، ولغة فصحى تخصّ المكتوب.

= W. Marçais, « La diglossie arabe », La langue arabe, Articles et conférences, Publications de l'Institut d'Etudes Orientales, Faculté des lettres d'Alger, Librairie d'Amérique et d'orient, Paris, 1961

(1) W. Marçais, « La langue arabe », p 83

إضافة إلى ذلك، تتعدّد اللهجات - كما أوضح ذلك مارسيه داخل اللغة العاميّة نفسها، ويعود ذلك إلى اختلاف البيئات داخل المجتمع الواحد، فتختلف لهجة ساكني الأرياف عن اللهجة التي يتحدّث بها أهل المدن، فأفراد كلّ بيئة يتّفقون على طريقة نطق معيّنة تختلف من جهة إلى أخرى، فطريقة النطق في الجنوب التونسي – مثلاً - تختلف عن طريقة النطق في الشمال الذي بدوره تتعدّد فيه اللهجات بين شرقه وغربه. إنّ تأثير المحيط الجغرافي على اللغة واضح، يعكس تأثر اللغة بما هو خارجيّ، وهذا يتنزّل في سياق اللسانيات الخارجية -التي تحدّث عنها دي سوسير، وهو صاحب المصطلح[1]- التي تهتمّ بتأثير عوامل خارجية، مثل الجغرافيا أو السياسة أو الاقتصاد، في اللغة، وفي ذلك إشارة إلى العلاقات الموجودة بين اللغة والتاريخ السياسي الذي يؤثر في اللغة بطريقة مباشرة، شأن الوقائع التاريخية الكبرى، مثل فتح المسلمين لشمال أفريقيا الذي كان فتحاً لغوياً، وليس سياسياً وجغرافياً فقط، وهو ما يؤدي إلى تغيّرات في صلب اللسان أو اللغة. وهو ما ذهب إليه مارسيه في اهتمامه في عدّة أبحاث بنشأة اللهجات العربية في المغرب العربي الكبير[2].

(1) انظر: F. De Saussure, Cours de linguistique générale, pp. 40- 43

(2) انظر:

W. Marçais, Comment l'Afrique du nord a été arabisée, Conférence faite à l'Université de Londres (School of Oriental =

إنّ اهتمام مارسيه بتنوّع اللهجات وتعدّدها داخل اللغة العربية هو في صميم بحثه حول الازدواجية اللغوية التي اتخذت أشكالاً شتى، لتفيد في كلّ مرّة تجدّد اللغة العربية التي تختلف من مكان إلى آخر، بل داخل المكان الواحد، والتي تتجدّد من فترة إلى أخرى، لتظهر في كلّ مرّة لهجة خاصة بمجموعة ما، لها تأثير على بقية المجموعات التي تتواصل معها. فاللغة ممارسة أو لا تكون، من خلالها تحيا وتعيش وتتواصل وتنمو، فتختلف وتتعدّد.

3 ـ اللغة العربية عند مارسيه بين المنطوق والمكتوب

لم يكتف مارسيه ببحثه في تاريخ اللغة العربية وتتبّع أطوارها، بل نقّر في بداية تكوّنها وسرّ قوّتها وانتشارها، مشيراً إلى ما ميّز الثقافة العربية، انطلاقاً من لغتها من تنوّع وثراء، بدايةً بكثرة المترجمات في أواسط القرن الثاني التي بها اتّسع نطاق الثقافة العربية- كما أعرب عن ذلك في مقاله حول اللغة العربية(1)- التي

= and African Studies) le 26 Janvier 1939, publiée par les Annales de l'Institut d'études orientales de la Faculté des Lettres de l'Université d'Alger, IV, 1939

وانظر كذلك:

W. Marçais, L'Islamisme et la vie urbaine, dans « Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres », Paris, p. 86-100.

(1) W. Marçais, «La langue arabe», Rapport d'inspection générale publié par l'Enseignement public, revue pédagogique, Paris, Delagrave, n° 12 (décembre 147 p), 1930

نهلت من نفائس علوم الأوائل والأدب الفارسي والحكمة الهندية. تلك هي الجداول المتفرّقة التي تكوّن من التقائها نهر عظيم، غرفت منه الثقافة العربية - كما يقول مارسيه[1] - حتى ارتوت، فكانت قائمة على الثراء والتنوّع.

لقد تساءل مارسيه، وهو على علم بمدى تأثير الجانب السياسي على اللغة العربية في بدايات انتشارها، كونها قد وحّدت العالم العربي، حول مدى رسوخ استعمالها الحديث بعد انهيار الوحدة السياسية للعالم العربي الإسلامي إلى يومنا هذا، وبقاء الوحدة اللغوية، حيث نجحت اللغة فيما فشلت فيه السياسة.

لقد طرح مارسيه مسألة في غاية من الأهميّة، ألا وهي: كيف كان استعمال العربية الضاربة في القدم، للتعبير عن مسائل حديثة في الحياة المعاصرة؟ متسائلاً: "هل يلجأ كتّاب مصر وسوريا للتحدّث عن بعض الحقائق وبعض مفاهيم الحياة الحديثة إلى توليد أو استحداث مجموعة من المصطلحات أو المفردات؟"[2]. بمعنى آخر: هل تواكب اللغة العربية الكلاسيكية لغة القرآن والشعر القديم، بعد كلّ هذه القرون، المفاهيم الحديثة ومستحدثات العصر؟ وهل يظلّ التعبير عن الأفكار في الحياة الحديثة هو نفسه بتراكيبه ومفرداته المستعملة قديماً؟ أم أنّه لا بدّ من استحداث لغويّ لمواكبة العصر؟

(1) المرجع السابق، ص 147
(2) نفس المرجع ص 84

غير أنّ مارسيه قد استدرك ما نطمح إلى الإجابة عنه، وهو أنّ النحو والصرف والتركيب لم يتغيّر أبداً، بمعنى أنّ النظام الداخلي للغة العربية ظلّ كما هو، لم يطله أيّ تغيير، وبالنسبة إلى دراسة اللغة "فقد تم تدريسها دائمًا بنفس الأطروحات المدرسية في فاس وتونس والقاهرة وبغداد"[(1)]، وهذا يدلّ على أنّ العربية - كما هو الشأن في مسألة الازدواجية اللغوية - تقوم على نوعين من الاستعمال، الاستعمال الأول: هو ما يبدو في المكتوب والمقروء منها، وما يُدْرَس ويُدرّس علمياً، المعتمد على الفصحى مطلقاً، أي ما يكون داخل المدرسة، أو البحث العلميّ، والاستعمال الثاني هو ما يكون خارج المدرسة، أي ما يُقال ويُنطق في التواصل اليوميّ في الشارع وفي البيت، وهو أوّل ما يتعلّمه الطفل من مفردات العربية المسموعة والمنطوقة قبل أن يتعلّم بصعوبة في بدايته اللغة العربية الفصحى بنظامها الصوتي والنحوي والصرفي. وهذا ما يجعل اللغة العربية تصطدم بواقع التطبيق والممارسة، وبالازدواجية، وهو ما ذهب إليه مارسيه في حديثه عن الازدواجية اللغوية في دراسته للهجات المختلفة، كما ذكرنا سابقاً، ولكنه لم يهمل العلاقة بين اللغة الفصحى واللغة المتحدَّث بها، أي اللغة العامية، أي بين المكتوب والمنطوق، حيث لاحظ اختلافهما، أو ما عبّرنا عنه بالاستعماليين

---

(1) المرجع السابق ص 84

للغة العربية، وما بينهما من قطيعة وانفصال متين، كأنّه قد وضعته حيطان المدرسة وأسوار البحث العلميّ.

على عكس اللغة العربية المنطوقة، يرى مارسيه[1] أنّ اللغة العربية الفصحى تمثّل التعبير الصحيح عن الفكر التجريدي، وهي امتياز اللغات الأدبية، وثمرة العمل الصبور في الاختيار الدقيق لعدة أجيال من الكتّاب، بينما العربية المنطوقة لا ترتقي إلى مستوى صياغة الأفكار والمفردات التجريدية، فهي تسمح فقط بالتعبير بطريقة غير محددة عن الأفكار البسيطة والأحاسيس، فلا يمكن اعتمادها في شرح النصوص أو مناقشة الأفكار.

في اهتمامه بالمنطوق وشغفه بالبحث في جذوره، لم يكتف مارسيه بمعرفة بعض اللهجات الحديثة التي عرفها من قبل العرب المسلمين، بل كان يشكّ في وجود لهجات قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام، ويرى أنه فقط من خلال التواصل مع العالم العربي كان الغربيون قادرين على معرفة اللغة العربية المتحدَّث بها المندثرة، والتي كانت منتشرة من عمق الخليج العربي إلى السنغال، ولعلّ بعضهم - حسب رأيه - لا يزال على تربة الجزيرة العربية الحديثة، يواصلون لهجاتهم من الجاهلية[2]. بل

(1) W. Marçais, « l'arabe écrit et l'arabe parlé dans l'enseignement secondaire » in « La langue arabe », in l'enseignement public, revue pédagogique, n° 2 (février 1931), p. 102

(2) W. Marçais, « La langue arabe », p. 85

يظنّ أنّ بعض الحقائق المتعلقة بالصوتيات والنحو والمفردات الخاصة بلهجات سوريا ومصر وشمال أفريقيا تعود إلى نفس اللهجات القديمة، معتمداً في ذلك على الحالات اللغوية المكتوبة[1]، حيث يرى أنّ الجانب الخاصّ باللهجات الحديثة موضّح بشكل أساسي من خلال الابتكارات اللغوية، بدءاً من حالة لغوية إن لم تكن متطابقة على الأقلّ، فهي مماثلة لحالة اللغة العربية المكتوبة، التي بدأت تتشكل في وقت مبكر جداً، حسب اعتقاده، وقد عُثر على مجموعة من الأغاني باللهجة العربية الأندلسية، يعود تاريخها إلى القرن الحادي عشر[2].

ولاحظ مارسيه – من خلال معايشته للغة العاميّة وأصحابها –

---

(1) بحث مارسيه في تاريخ اللهجات العربية – وإن اهتمّ أكثر بشمال أفريقيا – إلا أنه لم يهمل اللهجات الشرقية، وفي الجزيرة العربية، محاولاً تتبّع مسار تاريخ اللغة العربية في لهجاتها، وتطوره وفق تحديد منهج علمي دقيق لدراستها على مستوى نظام صوتي وصرفي، جعله يصبح مختصّاً في دراسة اللهجات العربية.
انظر كذلك حول دراسته للهجات العربية:
H. Pèrès, L'arabe dialectal en Espagne Musulmane aux X[è] et XI[è] siècles de notre ère, Extrait des Mélanges William Marçais, Ed G. P, Paris, 1950
W. Marçais , La diglossie arabe,- La langue arabe dans l'Afrique de Nord, -L'arabe écrit et l'arabe parlé dans l'enseignement secondaire, dans l'enseignement public, Revue pédagogique, tome CIV, n° 12 (décembre 1930), pp. 401- 409, tome CV, n° 1 (janvier 1931), pp. 20- 39 ; n° 2 (février 1931), pp. 121- 133

(2) W. Marçais, « La langue arabe », pp, 86 –85

ثراء ما ينتجه الأفراد والجماعة من سرد شفويّ، ولكن - حسب اعتقاده - لم يكن يفكّر أيّ من رواة القصص والحكايات الشعبيّة في إعطاء قصصه شكلاً شخصياً ومرسوماً نهائياً من خلال تدوينه كتابيّاً وتوقيعه باسمه، وهو ما يجعله منتج القصة، وذلك لسيطرة الذاكرة اللغوية الجماعية على اللغة العاميّة، حيث يمتلك الجميع حقّ رواية قصة ما وإنتاجها شفوياً، من خلال إسنادها إلى راو غير معلوم، أو راو محدّد، أو إلى راو جمع لا يُعرف مصدره، لذلك ظلّ الإنتاج الشفويّ ملكاً للجميع. ولكنّ الأمر يختلف مع الشعر الشعبي - كما يقول مارسيه[1] - حيث لاحظ - على عكس ما يخصّ النثر - أنّ الشعر الشعبي باللهجة المغاربية، في أغلبه، يصرّح بمنتجه، حيث تُسمّى القصيدة باسم صاحبها، ويُذكر غالباً في البيت الأخير، وهي - حسب مارسيه - مجموعة من الأغاني الشعبية، تُسجَّل في مذكّرة أو في دفتر الملاحظات. وقد لاحظ أنه من السهل على المغاربيّ أن يكتب باللغة العاميّة التي يتحدّث بها، ولكن ليس من الهيّن أن يكتب بالفصحى، فهو عندما يمسك بالقلم متوجهاً إلى الجمهور، يسعى جاهداً لاستعمال اللغة الأدبية[2]، وهو ما لاحظه مارسيه في رسائل غير المتعلّمين، أو الذين لم يصلوا إلى مستوى من التعليم يخوّل لهم إتقان اللغة العربية الفصحى، حيث يغلب استعمال العامية على

(1) المرجع السابق، ص 86
(2) المرجع السابق، ص 86

الفصحى، فيغيب الشكل المطلوب للعربية المكتوبة، رغم محاولة المحرّر تزيين كلامه وتنميقه بعبارات لا تعكس إلا وهمه في استعمال اللغة العربية الفصحى، كما يقول مارسيه[1].

ما لاحظه مارسيه له علاقة بمسألة الازدواجية اللغوية التي تجعل من اللغة حالتين من الاستعمال، حالة لغوية غالبة متحدَّث بها، وهي العاميّة، ولا تُعدّ اللغة الرسميّة، وحالة لغوية مكتوبة لا تتعلّق بكلّ الجمهور، بل بالنخبة المتعلّمة، وهي الفصحى، وتمثل اللغة الأساسية.

وهذا الازدواج - حسب مارسيه - يؤثّر تأثيراً بالغاً في استعمال الفصحى، ومدى تطبيق قواعدها، واحترام مبادئها النحوية والصرفية والأسلوبية والتركيبية، ولا شكّ أن تطغى الأخطاء والعيوب على المكتوب منها، خاصة بالنسبة إلى غير المتخصّصين فيها وفي آدابها.[2]

يميّز مارسيه بين المكتوب والمنطوق على مستوى التطبيق والممارسة، حيث تكون العلاقة بالمنطوق مباشرة وذاتية، في حين يتطلّب المكتوب بعداً موضوعياً له علاقة بشروط الكتابة وقواعدها النحوية والإعرابية، حيث إنّ ما يُنطق في اللهجة العامية لا يحتكم إلى معيار قياسيّ في استعمال قواعد اللغة، بينما ما يُكتب خاصة في الإنتاج العلمي والأدبي يحتكم إلى

(1) المرجع السابق، ص 86
(2) المرجع السابق ص ص 86- 87

صرامة قواعد اللغة العربية الفصحى، من نحو وأسلوب وتركيب وكلّ ما يتعلّق بالنصّ المكتوب من شروط ترتقي به إلى أن يكون موجهاً إلى الجمهور، وجديراً بالنشر والاهتمام. وهذا ما يجعل مهمّة الكتابة الأدبية ليست هيّنة، بل تتطلّب دراية باللغة العربية وقواعدها، وممارسة روحية ترتقي إلى الخلق والإبداع، لأنّ الكتابة الأدبية فنّ ليس متاحاً للجميع. فإتقان اللغة العربية الفصحى لا يرتقي إلى مستوى الإبداع إلا إذا توفرت شروط ذلك، ولكن احترام مبادئ الكتابة باللغة الفصحى - في حدّ ذاته - يُعدّ شرطاً أساسياً لإتقان اللغة التي سيطرت عليها العاميّة في التواصل اليوميّ.

فما يوحّد اللهجات العربية المختلفة هو المكتوب وليس المنطوق، ورغم ذلك يظلّ المنطوق طاغياً مع تعدّده واختلافه من قطر إلى آخر. وقد رأى مارسيه أنّ اللهجات المغاربية - عموماً - تنتمي إلى نفس النوع، فهي تمتلك بعض السمات المشتركة التي تختلف بها عن اللهجات الشرقية في سوريا ومصر وبلاد ما بين النهرين، ولكنها تختلف أحياناً بما فيه الكفاية في الجزئيات، بحيث يكون من الصعب على المحاورين من المناطق النائية أن يفهموا بعضهم عند الاتصال الأول، كما هو الشأن - مثلاً - بالنسبة إلى قرويّ من شمال المغرب الأقصى، وبدويّ من جنوب تونس، حيث يصعب عليهما فهم بعضهما في لقائهما الأول[1].

---

(1) المرجع السابق، ص 87

بعد بحثه الطويل في المنطوق والمكتوب، يتساءل مارسيه: ما حال العربية اليوم؟ هل مازالت اللغة العربية الفصحى المكتوبة لغة النخبة فقط؟ فهو يرى أنها - إلى يومه وعلى الرغم من الجهود المبذولة لتحديثها لجعلها أكثر مرونة وفي متناول الجميع - لا تزال امتياز الأقلية من النخبة العالمة والمتعلّمة. مازالت اللغة العربيّة حكراً على النخبة، وغير متاحة لعوامّ العرب، بحيث لا توجّه الفصحى للعوامّ الذين لم يصلوا بعد إلى فهم كلّ مفردات العربية المكتوبة وأساليبها وتراكيبها، فظلّت لغة الثقافة والتعليم والمدرسة، دون نزولها إلى الشارع، أي ما وراء جدران المدارس والكتب. هذا ينطبق زمنياً على الفترة التي عايشها مارسيه، وهي فترة مضطربة، لم تحقق فيها بلدان شمال أفريقيا استقلالها السياسي والثقافيّ والاجتماعيّ، ولم تشهد تطوّراً على مستوى التعلّم والتعليم الذي كان مقتصراً على القلّة ولم ينتشر ليعمّ الأغلبية، كما هو الشأن في يومنا هذا، حيث اختلف الأمر، وأصبح العالم العربي أكثر قرباً من اللغة العربية الفصحى، حيث التشجيع على الإنتاج الأدبي والفكري لتكون اللغة الفصحى أكثر استعمالاً وإقبالاً.

فما أشار إليه مارسيه، ويتعلّق بنخبويّة اللغة العربية الفصحى، يرتبط بمسألتين أساسيتين، أوّلاً: مسألة الازدواجية اللغوية التي تسم العربية، وهي تتأرجح بين عاميّة تُمارَس يوميّاً، وتُقال، وبين فصحى لا تُمارس إلاّ داخل المدرسة والكتب والرسائل

والخطب السياسية والثقافية. وثانياً: مسألة تتعلق بمدى نسبة التعليم والتعلّم في البلاد العربية، حيث تطوّرت في يومنا هذا مقارنة بالعقود الأخيرة، ولكن مازالت لم تصل بعد إلى درجة القضاء النهائيّ على الأمّيّة، خاصة في البوادي والأرياف، حيث ينقطع الكثير من الأطفال عن الدراسة في سنّ مبكّرة، فلا يصلون إلى المستوى التعليمي الذي يخوّل لهم فهم اللغة العربية المكتوبة في الصحف وفي الكتب، حيث يصعب عليهم فهم مفردات المعجم، فما بالك أن يفهموا لغة الروايات والقصائد والكتب الفلسفية وغيرها من المؤلفات التي تتطلّب تكويناً أساسياً في اللغة العربية، حتى يتمّ فهمها واستيعابها!

وهذا ما جعل مارسيه يرى أنّ اللغة العربية المكتوبة مازالت لغة النخبة، رغم ما شهدته من غزارة في الإنتاج الأدبي والعلمي الذي ظلّ موجّهاً للخاصّة، متسائلاً عن كيفية تعامل الخاصّة أيضاً مع اللغة المكتوبة، أي مدى فهمهم للنصوص القديمة من أمهات الكتب التي تختلف شروحها، فيختلف فهمها وتأويلها.

4 ـ اللغة العربية بنظرة الأجنبيّ:

في الواقع، لم يكن ويليام مارسيه يُخْفِي -وهو يسترجع تاريخ اللغة العربية- إعجابه بلغة الضادّ العريقة، التي رغم ما أدخِل عليها من تغيير في أساليب استعمالها المختلفة من جهة إلى أخرى، ومن عصر إلى آخر، ورغم ما شهدته من تناقضات

في تطبيقها الازدواجيّ والمتعدّد شكلاً ومضموناً، ظلّت صامدة في وحدتها وتفرّدها، ملتفّة حول لغة القرآن الكريم والشعر العربي الأصيل، لم تتغيّر أبدا إلا بما استُحدث وابتُدع في معجمها، مواكبة بذلك التطوّر وصيرورة التغيّر، وفي الوقت نفسه محافِظة على أصالتها وعراقتها، لتكون الثابت داخل المتحوّل، والجوهر داخل العرضيّ.

وما جعل مارسيه معجباً باللغة العربية كذلك - حسب ما ذكره هو نفسه - تميزّ الحضارة العربية الإسلامية في فترة الفتوحات بالازدهار في الثقافة الأدبية والبحث العلمي، وقد بحث مارسيه في نشأة التفسير في أواخر القرن الأول الذي اتخذ في أوّل أمره شكل الحديث، ورأى مارسيه أنه قد نُقدَ وقُيّد، ولاحظ ما انجرّ عنه من مجادلة في العقائد، حيث وُضع الحجر الأساسيّ لصرح الفقه، وما كان من تأليف في التاريخ والمغازي والسير وجمع لنفثات الأدب القديم وشرحها، وما استُخرج منها من شواهد للغة، وما استُنبط من قواعد للنحو[1].

إن إعجاب مارسيه باللغة العربية يدلّ على وعيه بأهمية اللغة التي تمثّل هوية الجماعة وثقافتها من جهة، وشخصيته من جهة أخرى، وهو الذي قضى عقوداً من الزمن بعيداً عن عائلته،

(1) William Marçais, La lexicographie arabe, Conférence faite en 1940 à Rabat (Institut des Hautes Etudes marocaines), p. 147

ليدرس اللغة العربية، متنقّلاً بين تونس والجزائر والمغرب وليبيا، لم يشغله شاغل كما شغلته العربية في مكتوبها ومنطوقها، فاعتنى بها بحثاً ودرساً، بحث الانثروبولوجي، ودراسة اللسانيّ. ولكنّ هذا البحث العلميّ الدقيق لا يخلو من مشاعر الافتنان والإعجاب، فنراه - في تعامله مع اللغة العربية - كثيراً ما ينحو إلى التغزّل بها، فيشبّهها تارة بالعود والموسيقى في رسم جميل لا يخلــو مــن رومانسية، كما ذكرت ذلك أرلات روث جيثنير (Arlette Roth-Geuthner) في حديثها عن مارسيه وولعه بالعربية[1]، في قوله: "الكلمة العربية كالعود، إذا نقرْتَ على أحد أوتاره رنّت لديك جميع الأوتار وخفقت"[2]، وتارة أخرى يشبّهها بالكائن الحيّ[3]، فهو يرى أنّ اللغة العربية تعطي دائمًا الانطباع بكونها كائناً حيّاً في مواجهة دائمة مع الاستعمال

---

(1) Arlette Roth-Geuthner, « Un linguiste arabisant émérite », in Michèle Junqua et Odile Kerouani avec la collaboration de Eveline Cortet, Deux savants passionnés du Maghreb, Hommage à William et Georges Marçais, Institut du Monde Arabe, Bibliothèque UNESCO, p. 37

أرلات روث جيذنير هي لسانية مختصة في علم اللهجات العربية وفي اللسانيات السوسيولوجية، واهتمت بالبحوث في مركز اللسانيات والأدب العربي، وقد ألفت كتاباً بالتعاون مع (بريتو كلود) حول الفن الشعري في تكرونة، قصائد في الحب والحكمة، صدر سنة 1990.

(2) المرجع السابق، ص 37

(3) انظر في مقاله حول اللغة العربية في وصفه لحيوية المفردات العربية ومرونة حركتها داخل المعجم. ص ص 84 - 85

والسياق، وهو يميّز بين اللغة العربية ذات الأصول الساميّة التي كانت لغة بسيطة في ألفاظها وتراكيبها، بحيث يمكن التعبير بجمل قصيرة عن أفكار مأثورة، وفي تراكيب متقاربة يسهل فهمها وإنتاجها، وبين اللغة التي وقع تطويرها، ومن ثمّ انزياحها عن أصلها الأول، ويجب مراعاة اختلاف التفكير فيها وما يتخلله من عوارض، إضافة إلى تطوّره الزمني"[1].

يشير مارسيه هنا إلى علاقة اللغة بالفكر وبالواقع والاستعمال، وهو ما بحثت فيه اللسانيات الحديثة، وخاصة اللسانيات العرفانية (la linguistique cognitive)، حيث كان الاهتمام بالجانب التطبيقي للغة التي هي - في نفس الوقت - نظام من العلامات والعلاقات ولسان الخطاب، ووسيلة التواصل والتعبير عن الأفكار، والوسيط بين الإنسان ومحيطه. فاللغة التي هي جزء من الواقع والفكر، جديرة بأن تُعدّ كائناً حيّاً قابلاً للتغيّر والتطوّر، شأنها شأن ناطقها ومستعملها، فلا يمكن أن ننظر إليها بكونها نظاماً ثابتاً لا يتغيّر، ومتعالياً على الواقع والاستعمال، بل يجب أن تكون الأولوية لعلاقة اللغة بمستعمليها، وبالذهن وبالواقع والبحث فيما يتخلّلها من تطوّر، ومدى استجابتها لهذا التطوّر الذي يضفي عليها ضرورة حركة وثراءً وتجدّداً، وهي المتجدّدة والمتطوّرة بطبعها. وهذا ما ذهب إليه مارسيه في بحثه في اللغة

(1) W. Marçais, La langue arabe, p. 84

العربية، حيث غاص في فوارق الاستعمال وتطوّره، رابطاً بين اللغة وممارسيها، باحثاً فيما هو ثابت متجدّد وما هو واضح ومتداخل، منتبهاً إلى المعجم العربي الذي يفيض مفردات ومعاني قد تعدّدت والتبست عليه وعلى العربيّ أصلاً. ويفسّر سبب وجود اللبس الأزليّ، كما يقول مارسيه[1] في اللغة العربية- الذي تفاقم في الاستعمال، واستمرّ هذا الاختلاط اللفظيّ والدلاليّ في الخطاب الذي يفرض استخدام مكوّنات فعلية وأخرى اسميّة، إلى جانب وفرة المفردات المتقاربة في المعنى- بالانزياح الذي صار للّغة العربية التي تطوّرت وتغيّرت تراكيبها ومفرداتها بعد ابتعادها عن بدايتها الساميّة وتداخلها مع لغات أخرى على مرّ التاريخ. ويوضّح مارسيه مسألة اللَّبس في اللغة العربية التي يعيشها العربيّ أيضاً، فالباحث العربيّ يبحث باستمرار عن كلمات في القواميس للوصول إلى المعنى المطلوب إزاء تعدّد المعاني، أو لمعرفة معنى كلمة ما تشملها الفصحى دون العاميّة، فيصعب فهمها، وهو الذي اعتاد سهولة مفردات العاميّة.

ولا شكّ أنّ هذا الأمر لا يقتصر على اللغة العربية، بل يشمل كلّ اللغات الطبيعية القائمة في جزء منها على الترادف أو الاشتراك الدلالي واللفظيّ، إلّا أنّ العربية تتميّز بنسبة كبيرة من الاشتراك الدلاليّ والترادف، إذ أنّ أغلب مفردات العربية هي

(1) المرجع السابق، ص 87

من المشترك الدلاليّ، وهو ما جعل مارسيه ينتبه إلى هذه الظاهرة المعروفة في العربية، والتي لفتت انتباه العديد من الباحثين في الدلالة والمعجم.

إضافة إلى ذلك، نظر مارسيه في النظام الصرفي والاشتقاقي في العربية، وقد لفت انتباهه دقة هذا النظام الشامل الثابت، وشدّه نظام العلاقات القائم بين الصرف والاشتقاق، ولا يمكن فهم هذا النظام الصرفي إلا بفهم النظام الاشتقاقي الذي يستند أساسا على الجذر، مقترناً في مستوى ثان بالوزن والصيغة. وقد نظر مارسيه إلى الاشتقاق بنظرة لا تخلو من إعجاب، جعله يهتمّ به بشغف كبير، ويرى أنه من السهل فهم الاشتقاق والتمكّن من آلياته[1].

إنّ اهتمام مارسيه بالنظام الصرفي والاشتقاقي للغة العربية يتضمّن رسالة إلى القارئ العربي، من جهة، الذي لا يمكن أن

(1) المرجع السابق ص 88

انظر كذلك حول دراسة مارسيه للصرف والاشتقاق في اللغة العربية في كتبه حول النصوص العربية المشروحة مع مسرد المصطلحات في نصوص عربية من طنجة، ونصوص عربية من تكرونة، ونصوص عربية من الحامة:

Textes arabes de Tanger, transcription, traduction annotée, glossaire (1911).

Textes arabes de Takroûna , transcription, traduction annotée, glossaire (1925).

Trois Textes Arabes D'EL-Hamma de Gabès, (avec Jellouli Farès) , J. Dupuis, Journal Asiatique , 1931

يكون إلا مفتخراً بلغته، وهو ما يدعو دون شكّ إلى الاعتزاز بالانتماء إلى لغة قد أغرت العديد بتعلّمها ودراستها، ولا زالت كذلك، ومن جهة أخرى إلى القارئ الأجنبي، ولعلّه الفرنسيّ تحديداً، تغريه وتدعوه صراحة إلى تعلّم العربية التي لا يصعب عليه البتة تعلّمها والإمساك بمفاتيحها الأبجديّة. وهذا لا يبتعد عمّا يُقدّم لطالب في اللغة العربية في المستوى الأول من تعليمه من قواعد في الصرف والاشتقاق ووزن الفعل في اللغة العربية[1]. إنّ ما يتميّز به نظام الصرف في اللغة العربية لا يخلو من صرامة وقواعد أساسية لا تتغيّر مهما تغيّر الاستعمال.

لا شكّ أنّ مارسيه - وهو المتعلّم الجيّد للغة العربية والمتخصّص المتميّز فيها - قد أدرك ما يعترض مستعمل اللغة العربية من لبس وازدواجية تجعل مهمّة تعلّمه للنظام الداخلي للغة العربية من نحو وصرف وتركيب واشتقاق ومعجم ليس بالأمر الهيّن، ولا هو من قبيل ممارسة اللغة اليومية التواصلية، إذ لا بدّ من الانتقال من لغة عاميّة بعيدة كلّ البعد عن النظام الإعرابي والتركيبي إلى لغة فصحى صارمة، تشترط احترام التركيب والنحو والصرف، أي من لغة غير علميّة إلى لغة علميّة.

(1) وزن الفعل في اللغة العربية ينقسم حسب طبيعة الفعل ونوعه إلى المجرّد والمزيد، حيث لا يخرج الفعل الثلاثيّ المجرّد عن أوزانه الثلاثة في تصريفه في صيغة الماضي، وهي فعَل وفعُل وفعِل، التي تكون فيها الأهمية لحركة عين الفعل، في حين يلتزم الفعل المزيد بأوزان قياسية محدّدة لا يخرج عنها.

ولكنّ مارسيه - رغم مكابدته الطويلة في دراسة اللهجات واللغة العربية، وما عايشه من ازدواجية تصعب حتى على أهل اللسان، فما بالك بمتعلّم للغة ثانية بعيدة كلّ البعد عن لغته الأمّ - يرى أنّه من السهل تعلّم اللغة العربية في أبجديّتها ومبادئها رغم صعوبة الصرف الذي يبدو معقّداً بعض الشيء للوهلة الأولى - كما يقول - والمنتظم بشكل لا يصدّق - على حدّ تعبيره - حيث يعتقد أنه من الممكن أن يُستوعب في فترة وجيزة، "فالجهد المعتدل لبضعة أشهر يكفي ليُكتسب من خلال ذاكرة متوسطة"[1].

5 ـ في مقارنته بين العربية والفرنسية:

في إطار المقارنة بين العربية والفرنسية، يرى مارسيه أنّ الفعل في العربية يتميز بسهولة تصريفه مقارنة مع الفعل في اليونانية أو الفرنسية[2]، لما يختصّ به من مرونة وسلاسة

---

(1) W. Marçais, La langue arabe, p.84

(2) انظر في مقال مارسيه حول اللغة العربية، W. Marçais, La langue arabe, Rapport d'inspection générale publié par l'Enseignement public, revue pédagogique, Paris, Delagrave, n° 12 (décembre 1930), p. 85

حيث عبّر عن سهولة فهم الفعل في العربية حرفياً بـ"لعب الأطفال" (jeu d'enfant) مقارنة بالفعل في الفرنسية أو اليونانية، وذلك يعود إلى وضوح النظام الصرفي والاشتقاقي للفعل في العربية الخاضع لأوزان محدّدة، وحركات معيّنة، لا يخرج عنها، ويمكن تحديدها =

ووضوح في نظامه، فهو لم يجد أيّ صعوبة في الاشتقاق، بل رأى أنّه من السهل التعرّف على المفردات انطلاقاً من الاشتقاق الذي - حسب اعتقاده - لا يُخفي ما يتعلّق بالمفردة من حذف وانقباض وتبادل صوتي، إذ يحيل - بالعودة إلى جذر - كلّ مفردة إلى مكوّناتها، أي الحروف الأصول دون زيادة أو نقصان، والثابتة أبداً في معجمها، فالاشتقاق يمثل منهج التوليد في اللغة العربية، حيث تتعدّد المفردات المشتقّة من جذر ما وتختلف في صيغها التصريفية، لتعود في النهاية إلى الجذر الموحّد لها.

وقد لاحظ مارسيه ما يميّز الاشتقاق والجذر من وحدة، حيث ربط بين الاشتقاق والصرف والمعجم لتكون وحدة متكاملة ومتناسقة، من خلالها تُعرف المفردات، عبّر عنها مارسيه بـ"هوية الجذر والأصل"[1] ، ويرى أنها وحدة كاملة إلى حدّ كبير، حيث يكون كلّ قاموس عربي اشتقاقيّاً، أي يقوم على نظام الجذر، ويقدّم المفردات مرتبة بشكل منهجي وفق الحروف الساكنة الثلاثة التي يُشكّل كلٌّ منها قواماً أساسياً ثابتاً وواضحاً دائمًا[2] .

= بسهولة، والتمكّن بذلك من تصريف أيّ فعل حسب وزنه المحدّد وصيغته المفترضة.

(1) المرجع السابق، ص 84

(2) المرجع السابق، ص 84

ما ذهب إليه مارسيه من وحدة الجذر والاشتقاق هو نفسه ما بحث فيه النحاة العرب القدامى والمحدثون، وقد اختلفوا في أصل الاشتقاق الذي =

إضافة إلى الترادف الرهيب - كما يقول مارسيه - الذي اعترضه في دارسته للغة العربية، في مقارنتها باللغة الفرنسية، تعترضه مسألة تعدّد المعاني التي أرهبته أكثر وهو يحصي عدد معاني المفردات المتعدّدة المعنى بتعجّب وإعجاب، فنراه يتحدّث عن وجود مائتي كلمة عربيّة تحيل إلى كلمة "ثعبان"[(1)]،

= أثبتت البحوث اللغوية أنّه الجذر، وعليه كان كلّ عمل تصنيفي في المعجم أو الاشتقاق، وقد اعتمد الجذر مدخلاً لتنظيم مفردات القاموس، لكونه يتضمن الحروف الأصول الثابتة، مع خلوه من الدلالة إلا عندما يكون في وضع اشتقاقيّ اسميّ أو فعليّ.

(1) لقد اهتم اللغويون العرب القدامى بمسألة تعدّد المعنى أو الاشتراك الدلالي، ولكنها كانت متناثرة في أمهات الكتب، متداولة بين أعلام اللغة في دراسة طبقات المعنى، مثل الجرجاني في "أسرار البلاغة"، والخليل بن أحمد الفراهيدي في كتاب "العين"، وابن يعيش في "شرح المفصّل"، واللحيانيّ في كتاب "النوادر"، والمبرّد في كتاب "الكامل"، والأزهريّ في كتاب "التهذيب"، وغيرهم من أئمّة اللغة وصانعي المعاجم مثل ابن منظور في "لسان العرب"، الذي شمل كلّ الألفاظ المتعددة المعنى، وهو المرجع الأساسيّ لتحديد معاني المفردات. وفي المقابل نجد مؤلّفاً حول فوارق اللغة ودرجات المعاني، وهو كتاب "فقه اللغة" للإمام أبي منصور الثعالبي، وهو ما ذهب إليه مارسيه في بحثه في الاشتراك اللفظي والدلالي، ويتضمن الكتاب ضروباً من الأسماء المتعددة للفظ الواحد، فنجد، مثلاً، أكثر من 26 اسماً للحيّة (162-164)، كما نجد تسعة أسماء لكلمة النار، وهي: "الصِّلاء، السّكن، الضّرَمَة، الحرَق، الخَمدة، الحدمة، الجحيم، السّعير، الوحى" (ص 320)، وثلاثة عشر اسماً للنوم (ص 165)، وغيرها من المفردات التي تخصّ الإنسان في أفعاله وأحواله، والنبات والحيوان.

انظر: الإمام أبو منصور الثعالبي: فقه اللغة، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981

في حين يخبرنا مستغرباً أنّ لكلمة "عجوز" ثلاثة وستين من المعاني المختلفة، منها معنى "المرأة المسنّة" و"النخلة" و"الشمس" و"قوس قزح"[1] ، ومتسائلاً: كيف لكلمة واحدة تتمثّل في مقطع أحاديّ، وهو الضمير المتصل العائد إلى ضمير الغائب المفرد"ـه"، أن تَضمّ مجموعة من الاستعمالات في الفرنسية[2]، مثل « son, sa, ses, le sien, la sienne, les siens, lui et le »، ونفس الشأن بالنسبة إلى كلّ الضمائر المتصلة في العربية المتعلقة بالضمائر المنفصلة، ضمائر المتكلّم والمخاطب والغائب، حيث يعوّض مقطع واحد- مثل "ـي" و"ـنا" و"ـك" و"ـكم" ... إلى غير ذلك من الضمائر المتصلة - مجموعة من المقاطع والاستعمالات في اللغة الفرنسية مثل « ma, mes, la mienne, la tienne, notre, votre, nos, vos, tes, ton, ta ». كما أشار إلى أنّ المقطع الواحد المتمثل في الحرف أو الأداة "ما" يجمع الموصول في الفرنسية « ce que » وظرف الزمان « aussi longtemps que » والنفي المطلق في الماضي « ne pas »[3]، وهي المعاني نفسها التي يحقّقها في العربية، حيث يمثّل موصولاً حرفياً أو اسمياً وأداة نفي مع الفعل في صيغة الماضي. يَعُدّ مارسيه هذا التعدّد للفظ الواحد في العربية من الصعوبات الجوهرية التي تعترض متعلّم اللغة العربية، ويرى أنّ هذه الصعوبات تزداد أكثر في الكتابة، وما يعتريها

---

(1) W. Marçais, La langue arabe, p84

(2) المرجع السابق، ص 84

(3) المرجع السابق، ص 84

من خلل يعود إلى وجود الكلمات والأفعال الناقصة التي، عادةً ما يقع فيها إهمال حرف العلة[1]، في حين أن الصرف - في جزء كبير منه - يقوم على التبادل في الحركات وفي الحروف[2]، كما هو الشأن في العلاقات التركيبية التي تتسم بالتناوب.

بالإضافة إلى الترادف والاشتراك الدلالي، يشير مارسيه إلى تواتر الكلمات المتشابهة في النطق، والمختلفة في الكتابة، والتي تمثل صعوبة يواجهها المستعرب، خاصة بالنسبة إلى حروف العلة التي لا تظهر غالباً في الأفعال المتصرّفة، فمن الصعب التمييز - مثلاً - بين هوَى (يهْوِي) بمعنى سقط، وهوَى (يهْوَى) بمعنى أحبّ وعشق، أو بين مُرَّ (الأمر من فعل مرَّ)، ومُرٌّ (صفة ضدّ حلو)، وفعل مَرَّ الذي يعني المرور، والمرارة، حيث يكون

---

(1) يتعلق الأمر خاصة بالفعل الناقص، حيث لا يظهر الاختلاف بين الناقص الواوي والناقص اليائي إلا في الكتابة، بينما نطقهما واحد فيكون التماثل على المستوى الصوتي – مثلاً – بين دعا وسعى، في حين تختلف الألف المقصورة التي أصلها ياء عن ألف المدّ التي أصلها واو.

(2) يكون التبادل في حرف العلة بين الواو والياء كما هو الشأن بالنسبة إلى الأفعال المعتلّة، وهي الناقص والأجوف والمثال، حيث لا يثبت حرف العلة في تصريف الفعل من صيغة الماضي إلى صيغة المضارع، فتستبدل الألف في الأجوف بواو إذا كان أجوف واوياً، وبياء إذا كان يائياً (مثل سار يسير وفاق يفوق)، أو يختفي حرف العلة في المثال الواويّ في صيغة المضارع، ويعوّض بحروف المضارعة حسب الضمائر (وقف يقف، أقف....)، كما يقصي أيضاً في صيغة الأمر بالنسبة إلى المثال الواوي (قفْ)، والأجوف بنوعيه (سِرْ، فُقْ).

التمييز بين المعنيين حسب السياق. ما يشير إليه مارسيه من صعوبة في الكتابة العربية، من حيث كتابة الحروف التي لا تُنطق، المتعلقة بحروف العلة أو التضعيف، حيث يكون النطق - مثلاً (شدْدَ)، والكتابة (شدَّ)، أو كتابة الفعل المسند إلى ضمير الجمع الغائب "هم" في صيغة الماضي، والمخاطب "أنتم" في المضارع المنصوب والمجزوم، حيث تُكتب الواو والألف، ولكن لا تُنطق (فعلوا، لن تفعلوا، لم يفعلوا)، وهذا لا يقتصر على العربية، بل تواجهنا هذه الصعوبة أيضاً في الفرنسية. حيث إنّ عديد المفردات لا تتطابق الكتابة فيها مع النطق، والأمثلة عديدة لا تحصى ولا تعدّ، انطلاقاً من الأفعال والكلمات التي تنتهي بحرف «s»، والفعل المسند إلى ضمير الغائب الجمع الذي ينتهي بالحروف الثلاثة «ent»، ولا يُنطق فيها إلّا حرف «e»، هذا بالإضافة إلى المفردات التي تشتمل على حروف تُكتب ولا تُنطق. وهي مسألة تتطلّب وقتاً طويلاً يُحفَظُ فيه الكمّ الهائل من المفردات في الذهن لاستعادتها في كلّ مرّة عند الاستعمال، كما يقول مارسيه عن اللغة العربية: "يظلّ المستعرب طوال حياته سجيناً يدور في هذه الحلقة المفرغة، حيث إنه يجب عليه استعادة الحروف الساكنة غير المكتوبة لفهم النصّ، وإنه يجب أن يفهمها لاستعادتها، ولا يكفي السياق دائمًا لتبديد الغموض المعقّد للغاية، وللعديد من الأسباب."[1]

(1) المرجع السابق، ص 85

لقد ألمّ مارسيه بكلّ ما يتعلّق بالفعل في العربية، الذي بدا له أسهل بكثير من الفعل في الفرنسية على مستوى التصريف والاشتقاق والتركيب أيضاً، وقد أشاد بالنظام الاشتقاقي للعربية المتميّز بالوضوح والدقّة -حسب رأيه- معلّلاً بذلك قوله ببساطة المكوّن الفعلي، وسهولة تعلّم نظامه القائم على منهج دقيق وواضح، خالٍ من التعقيد والغموض، كما أقرّ ببساطة التركيب الذي يراه خالياً من أيّ تعقيد، حيث يكون الفعل واضحاً في بنائه وفي تعديته أو لزومه وفي متعلّقاته[1]، أي ما يتعلّق به من متمّمات مثل الفاعل والمفاعيل.

لقد أشار مارسيه في موقفه من الفعل في العربية الذي لخّص فيه كلّ ما يميّزه من بساطة في التركيب والاشتقاق والصرف إلى النظام الذي تقوم عليه اللغة العربية، وهو نظام يتميّز بالوضوح وغياب التعقيد، ولكنه لا يخلو من دقة وصرامة وبُنْية عميقة ليس من الهيّن فكّ رموزها، فهي تحتاج لمعرفة

(1) المرجع السابق، ص 84
لقد أشار مارسيه في رأيه حول بساطة المكوّن في العربية إلى كلّ ما يميّز الفعل على مستوى الاشتقاق والتركيب والإعراب، والتي تتلخّص في الخصائص المعروفة للفعل، وهي: يكون الفعل لازماً أو متعدّياً، يكون على أوزان محدّدة، يكون مبنيًّا إلى المعلوم فيرتبط بفاعل، أو مبنيّا للمجهول فيرتبط بنائب فاعل، يكون مشتقًّا من جذر محدّد في ثلاثة حروف أصول. ويكون في تركيب الجملة الفعلية المكوّن الأساسيّ الذي يحقق النواة الإسنادية، وهو عامل إعرابيّ في باقي عناصر الجملة.

كاملة بآليات اشتغال عناصرها التي تبدو متنافرة ومنفصلة عن بعضها، ولكنّها مترابطة شديد الارتباط، وكلّ عنصر فيها يحيل إلى الآخر، ابتداء من الحرف والصوت، إلى الجذر والاشتقاق والصرف والتركيب والإعراب، وصولاً إلى المعجم والدلالة. ولكن ما يميّز هذا النظام - كما رأى ذلك مارسيه - هو الوضوح والبساطة، رغم تشعّب فروعه وتداخلها، ممّا جعله يرى أنّ الفعل في العربية يسهل معرفة مكوّناته وآليات اشتغاله وفق المقولات التصريفية والاشتقاقية والمعجمية. ورغم ذلك، يذهب مارسيه إلى أنّ اللغة العربية المكتوبة لغة صعبة، حيث يقول: "لا يستطيع القارئ أبدًا أن يستمع للكلمات بسهولة، وتحديداً لصفحة من نصّ يُعدّ بسيطًا جدًّا".[1] يشير مارسيه هنا إلى مسألة مهمّة، وتبدو طبيعيّة، تتعلّق بصعوبة تعلّم لغة جديدة خاصة إذا كانت هذه اللغة مختلفة عن اللغة الأمّ، وغريبة عنها، وبعيدة كلّ البعد في أصواتها وحروفها وشكل كتابتها ونطقها.

فإذا كان من السهل فهم نظام العربية واستيعابه، فإنّ الأمر ليس كذلك كما يعتقد مارسيه بالنسبة إلى ممارستها كتابة وقراءة، بل حتى على مستوى سماع مفرداتها، فذلك يتطلّب الكثير من الجهد والوقت للتمكّن من تعلّمها وتطبيقها لما تتضمّنه من صعوبات تعود إلى اختلاف منطق النطق والحروف

(1) المرجع السابق، ص 84

في العربية، مقارنة باللغات الأوروبية التي تتشابه في حروفها مع اختلاف نطقها وقراءتها، فهي تشترك كتابياً في نظام خطّي من اليسار إلى اليمين، في حين تتخذ العربية - على العكس من ذلك - نظاماً خطّياً من اليمين إلى اليسار. وبين الأيمن والأيسر مسافة بعيدة تضع النوعين من اللغتين على طرفي نقيض، ليكون الاختلاف كبيراً يُسهم في صعوبة التمكّن من اللغة العربية بالنسبة إلى غير أصحابها الذين يرونها نموذجاً مختلفاً من الكتابة والحروف والأصوات، ولطرح مسألة الصعوبات التي تعترض متعلّمي اللغة العربية - حسب مارسيه - فإنّ ذلك يتطلّب منه تحرير مقالة طويلة تكون تقنيّة، وهو أمر مثير للفضول حسب اعتقاده لم يكتب أحد حوله.

ورغم الغموض والالتباس الذي يحفّ ببعض مفردات العربية، وصعوبة التوفيق أحياناً بين المنطوق والمكتوب، لوجود حروف العلّة والحروف الساكنة التي تُكتب ولا تُنطق وفق حالات صرفية واشتقاقية، تظلّ اللغة العربية بالنسبة إلى مارسيه لغة مغرية، فهو يراها لغة عظيمة، لكونها "أداة للتعبير عن حضارة عظيمة للغاية، وهي لغة ابن سينا وابن رشد وابن خلدون"[1]. إذ يمكن للغة العربية المكتوبة - كما يقول - أن تتباهى بوفرة الإنتاجات الأدبية بشكل ملحوظ على مدار أكثر من ألف عام.

---

(1) المرجع السابق، ص 85

الفصل الثالث

عرض لأهمّ كتب مارسيه، وأطروحاته الفكرية في اللغة العربية

اهتمّ مارسيه باللغة العربية، وخاصة اللهجات فبحث في تنوّعها واختلافها، مقارناً بينها وبين العربية الفصحى جامعاً بين النظري والتطبيقي، وإن كانت جلّ كتاباته حول اللهجات تطبيقية، تنمّ عن ممارسة ميدانية للغة المتحدّث بها في كلّ جهة. فكانت نصوصه توضيحية تحليلية، تستعرض فوارق اللغة في اللهجات وميزاتها الصوتية وأبعادها الاجتماعية الثقافية، حيث خصّ كلّ جهة بنصوص تجمع بين الشرح والعرض في شكل مسرد للمفردات. ومن أشهر مؤلّفاته، نذكر:

- نصوص اللهجة العربية المتحدَّث بها في تلمسان: القواعد، والنصوص والمسرد (1902) - اللهجة العربية لأولاد إبراهيم من صيدا (قسم وهران)، مقتطف من مذكرات الجمعية اللغوية في باريس، ورد في مجلّدين 14- 15 (1908)، دون نصّ ودون مسرد، -نصوص عربية من طنجة، نسخ، وترجمة مشروحة، ومسرد (1911)، - نصوص عربية من تكرونة: تمثّلت أولاً في نسخ، وترجمة مشروحة، ومسرد مصطلحات أُعِدّ بالتعاون مع

عبد الرحمان قيقة (1926)، وثانياً في مسرد مصطلحات (1958-1961)، - كتيب المتحف العربي في تلمسان (1906)، - الآثار العربية في تلمسان، مع جورج مارسيه (1903). كما قام بترجمة كتاب التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير للنّووي (1902)، والتقاليد الإسلامية للبخاري (1903-1908)، وترجمة كتاب موجز في اللسانيات السامية لبروكلمان (1910). وله دراسات ومحاضرات جُمِعت بعد وفاته في مجلّد بعنوان "مقالات ومحاضرات" (Articles et Conférences) مع مقدّمة لأخيه جورج مارسيه، صدر سنة 1961، ونذكر من أهمّ ما ورد فيه من مقالات ومحاضرات: "اللغة العربية" (مجلة التعليم العام، ديسمبر 1930) – "المعاجم العربية" (محاضرة ألقيت في الرباط 1940) – "كيف تعرّب شمال أفريقية" (محاضرة في 1939/1/26) – "المرأة في ألف ليلة وليلة" (محاضرة في باريس 1946) - "العبادة في الإسلام" (محاضرة في استراسبورج 1933) – "أصول النثر في الأدب العربي" (في RA ج 68 سنة 1927)

ونعرض فيما يلي أهمّ ما أنتج في بحوثه اللسانية، وتحديداً فيما يخصّ دراسة اللغة العربية واللهجات أو اللغة المتحدّث بها.

1- اللغة العربية[1]، من كتاب "مقالات ومحاضرات"

نُشر هذا المقال في مجلة التعليم العام، في ديسمبر سنة 1930، ضمن مجموعة من المقالات والمحاضرات، وردت في مجلّد بعنوان "مقالات ومحاضرات"، صدر سنة 1961، واهتمّ مارسيه في مقال "اللغة العربية" بمسألة الازدواجية اللغوية، وبالمقارنة بين اللغة العربية الفصحى واللغة العامية.

لم يقتصر عمل مارسيه على دراسة اللغة العربية في وجهيها الشفويّ والمكتوب، رغم اهتمامه الكبير بالشفويّ والمنطوق، الذي عدّه مسألة في غاية من الأهمية وجديرة بالدّراسة العلمية الجادّة، لما يتضمّنه من ثراء لغويّ وثقافيّ، يعكس تاريخ المتحدّثين ونمط عيشهم وثقافتهم، وقد توضّح ذلك من خلال اهتمامه باللهجات المغاربية التي كتب فيها نصوصاً تعدّ نماذج ومراجع في دراسة اللهجات، بل سعى إلى المقارنة بين اللغة المتحدّث بها: العاميّة، وبين اللغة الفصحى، ليشير إلى مجموعة من الملاحظات توصّل إليها بعد النظر في الاختلافات النحوية والمعجمية والصرفية والصوتية، مُلِمًّا بكلّ مستويات التحليل اللغوي للألفاظ. وقد أشار - في مقارنته لهذه اللهجات بالعربية المكتوبة - إلى أنّ القواعد والأسلوبيات مبسّطة للغاية[2] في

(1) W. Marçais, « La Langue Arabe », publié d'après un manuscrit inédit, par la Revue de l'Institut d'études politiques d'Alger, 1958.

(2) W. Marçais, La langue arabe, p.p. 87-86

اللغة العامية، حيث تُختَزل القواعد النحوية والصرفية، إن لم يكن الانزياح عنها، وذلك يتراءى من خلال تصريف الأسماء والأفعال، فكلّما ازداد التصريف ازدادت الوسائط اللفظية ومتعلّقات الأفعال، في حين يظهر التراجع الكبير عن استخدام المثنّى[1]، ويبدو واضحاً هيمنة الجملة الاسمية، حيث يكون للشعور الأسبقية على المنطق في بناء الجملة، ومن ثم يقع التخلّي عن عدد من العبارات المميزة للّغة الفصحى، والتي تُظهر جمال الأسلوب وشاعرية اللغة، وهذا يصحبه ضرورة تخفيف ملحوظ في المعجم. حيث تقوم اللغة العامية على مبدأ الاقتصاد في اللغة، من خلال استعمال أقلّ عدد من المفردات للتعبير عن

---

(1) يمثل المثنّى مقولة أساسية في المقولات التصريفية الفعلية والاسمية في العربية حيث يثنّى الفعل مع ضميري المثنّى المخاطب "أنتما" والغائب "هما"، مذكّراً ومؤنثاً، ويثنّى الاسم بإضافة الألف والنون في حالة الرفع، والياء والنون في حالة النصب أو الجرّ (ولدان/ ولدين). هذه القاعدة الأساسية تغيب في اللغة العامية، فيغيب تماماً المثنى ليحلّ محلّه الجمع في التعبير عن المثنى وعن الجمع في نفس الوقت: نقول – مثلاً-: "الولدان ذهبا... كتبا.." و"الفتاتان ذهبتا.. كتبتا" وفي العاميّة: "ذهبوا... كتبوا" وتحديداً باللهجة التونسية نقول: "الزُوزْ أولاد مْشُوا" و"الزُوزْ بنات مْشُوا"، نفس الشأن بالنسبة إلى ضمير المخاطب المثنى "أنتما" في قولنا: "أنتما ادخُلا" نقول بالعاميّة: "أنتم ادْخلُو". حيث يغيب تماماً مصطلح المثنى، سواء في الأسماء أو في الأفعال، لتعوّضه صيغة الجمع مع الإحالة في الأسماء إلى عدد المثنى، مثل عبارة "زُوزِ" في اللهجة التونسية بمعنى "اثنان"، فنقول للتعبير عن بنتين "زوز بنات"، وعن "رجلين" "زوز رجال"، فيقترن اسم العدد المحال إلى المثنى بالاسم في صيغة الجمع، فيحضر الجمع في المثنى، وكأنّ اللغة لا تقبل غير الجمع.

الأحداث أو الآراء مقارنة بالفصحى التي تجنح إلى استيفاء الشروط الإعرابية والدلالية للجملة(1). علاوة على ذلك، لاحظ مارسيه الاضطراب المتكرّر للاقتصاد المقطعي للكلمات، وظهور شكل جديد للنبرة (accentuation)(2)، حيث يختلف نطق الأصوات بين العامية والفصحى، ويختلف أيضاً في العاميّة ذاتها، حسب اختلاف اللهجات. ولكن يظلّ النمط الساكن دون تغيير، كما يقول مارسيه، حيث يقف المتكلّم على السكون في كلّ اللهجات، وهو ما يميّز العاميّة عن الفصحى المتحرّكة في أصواتها(3).

---

(1) في المقارنة بين العاميّة والفصحى، يظهر جليّاً مبدأ الاقتصاد في اللغة على مستوى التركيب والمعجم بالنسبة إلى العامية التي تجنح إلى الاختصار والاختزال في الألفاظ: للتعبير عن نفس الحدث، يمكن أن نقارن بيت الجملتين التاليتين: الفصحى: "أكلنا ما لذّ وطاب من صنوف الطعام"، وفي العاميّة في اللهجة التونسيّة: "كلينا ماكْلة بنينة" (يعني أكلنا طعاماً لذيذاً)، ففي الجملة الأولى بالفصحى نجد ثلاث نوى إسنادية، فهي جملة فعلية مركّبة تضمّن المفعول به أكثر من مركّب إسناديّ فرضه استعمال المركّب الموصوليّ، في حين في العامية كانت الجملة بسيطة خالية من التركيب، تشتمل على عدد أقلّ في الألفاظ . وهذا ما أشار إليه مارسيه في قوله بأنّ اللغة العامية مبسّطة أكثر في القواعد والأسلوبية، وترتكز على الشعور قبل المنطق، فهي لا منطقية أحياناً من حيث التركيب، كما في استعمال الجمع عوض المثنى، أو استعمال الجمع للتعبير عن المثنى، والجمع في نفس الوقت.

(2) المصدر نفسه، ص 87

(3) في العاميّة تكون الهيمنة للحرف الساكن، فعادة ما تنتهي الألفاظ بالسكون، وأحياناً تبدأ الأفعال كذلك بحرف ساكن، مثل "مْشيتْ" في اللهجة التونسية، وفي تسكين أواخر الكلمات، مثل: "بناتْ- ولادْ – رجالْ- كتبْ..."، وهذا يعود إلى عدم التزام اللغة العاميّة بالقواعد النحوية والصرفية.

كما لاحظ مارسيه وجود تغييرات في معاني المفردات، في اللغة العاميّة، مع تجديد يكاد يكون كاملاً في أدوات الربط أو حروف العطف، إلى جانب اتّخاذ بعض الجمل التي يُبحَث عن نماذجها دون جدوى في النصوص الأدبيّة، حيث لا يوجد في الفصحى أحياناً ما يتلاءم مع تعبيرات عاميّة لا يمكن نقلها حرفيّاً إلى النصّ الأدبي، فلا يمكن العثور على ما يعادلها لفظياً، أي على مستوى الألفاظ أو المفردات.

أ- موقفه من تعلّم العربية :

بعد وصوله إلى هذه الملحوظات في مقارنته بين اللغة العاميّة واللغة الأدبيّة، يرى مارسيه أنّ اللغة المتحدّث بها، أي العاميّة، على عكس اللغة الفصحى، من السهل تعلّمها، إذ يكفي القليل من الوقت والجهد حتى يتمكّن الأوروبي من ممارستها ممارسة مقبولة. ولكن هذا الرأي يُعدّ خاطئاً حسب مارسيه، ويرى أنه من الأخطاء الشائعة أن يُعدّ المستعرب أنّ الأمر يحصل بهذه السهولة، فهو يرى أنّ الأمر مختلف إذا تعلّق بفهم مائتي سؤال ومائتي جواب، وهو عدد يمكنه من فهم محادثة أساسية، فتكفي دراسة لبعض أشهر للوصول إلى التمكّن المتواضع المطلوب، وهذا يتعلق بكل لغات العالم وليس فقط العربية، إذ بإمكان أيّ شخص أن يتعلّم أبجديات اللغة والتواصل إذا توفّر الوقت والرغبة في تعلّم اللغة.

وفي حدود معرفته، يعتقد مارسيه أنّ عدداً من الأوروبيين يُجيدون اللغة العربية، ولكنّه يرى أنّ الأمر مختلف إذا تعلّق بالتعبير بوضوح عن الأفكار المجرّدة، أو بفهم محادثة بين شخصين من السكان الأصليين عندما يتحدثان مع بعضهما، إلى الجار الأوروبي - على حدّ عبارته، فهذا يتطلّب معرفة أوسع وأعمق بمفردات العربية ومعانيها المختلفة. يصبح الأمر صعباً بالنسبة إلى أوروبيّ أن يفهم، أو يعبّر بصراحة ووضوح عمّا يدور من حديث بين المتكلّمين الأصليين. وهذا يظهر خاصة في الاختبارات الشفوية في اللغة العربية بالنسبة إلى المترشحين الأوروبيين، حيث تظهر نقاط الضعف لديهم بقوة، كما يقول مارسيه[1]، فهو يعتقد أنهم - بخلاف بعض العبارات التي يعدّها تافهة، وبغضّ النظر عن بعض الجمل المستهلكة مثل "ماذا تفعل؟" و"أين تعيش؟" و"كم عمرك؟" وكيف حال الطقس؟" إلخ..- لا يستطيعون قول أيّ شيء، ولا يفهمون شيئاً تقريباً.[2] وقد أشار مارسيه إلى أنّ متعلّمي اللغة العربية من أبناء جلدته كانوا على دراية بالصعوبات التي وجدوها في اللغة العربية المغاربية المتحدّث بها، والتي إن لم تكن تماماً مثل صعوبات اللغة العربية المكتوبة، فهي ليست أقلّ منها أهمية، ويرى أنّ

(1) المصدر نفسه ، ص 87

(2) المصدر نفسه ، ص 87

النطق أوّل مأزق يعترض العديد من الأوروبيين، وهو مشكل أساسيّ تختلف فيه طرق النطق بين الفرنسية والعربية.

ومن بين هذه الصعوبات في النطق بالعربية يذكر مارسيه طول الصواتم، ونغمة حروف العلة، والحروف المتحركة، وطريقة نطق الحروف الساكنة، كلّ ذلك - يقول مارسيه - يثير تمرّداً في الحلق والفم، ويربك أذن فرنسيّ، حتّى وإن كان موهوباً وشغوفاً بمعرفة هذه اللّغة[1]، وذلك يتعلّق بوجود حروف متشابهة في النطق، ومبهمة في نفس الوقت بالنسبة إلى الفرنسيّ، ويذكر مارسيه - على سبيل المثال - في نظام السكون في العربية، بالإضافة إلى وجود حرف الهاء، والذي يعادله حرف (h) في الفرنسية، أنه يوجد نوع آخر من "الهاء" يُنطق بطريقة انفتاح مختلفة للحلق، وهو "الحاء" الذي يُعدّ من الحروف الحلقية الصعبة على غير الناطقين بالعربية، إضافة إلى حرف العين الذي يُعدّ صامتاً بالنسبة إليه، ويُنطق على شكل صوت "أَ" مفخّمة (' noté) [2]، وهو ليس إلاّ انقباضاً محدّداَ للحلق.

إضافة إلى ذلك، ومن ناحية أخرى، يشير مارسيه إلى وجود سلسلة من الأصوات المشدّدة أو المضخّمة (emphatiques)، ولا سيّما حرف الصّاد، وهو صوت مضخّم لحرف السين (s)، ممّا يصعب على الأوروبي - كما يقول مارسيه - التميز بين

---

(1) المصدر نفسه ، ص 87

(2) المصدر نفسه، ص 87

الصوتين السين والصاد، إذ يتشابهان في النطق إلى درجة التماثل أحياناً في بعض الألفاظ، فيصعب التمييز - مثلاً - بين "صباح" و"سبّح" (يعني قال: سبحان الله) و"صبّح" (يعني قال: صباح الخير، كما تعني كذلك في اللهجة التونسية استيقظ باكراً) إذ يتماثل شكل كتابة هذه المفردات - كما أعرب عن ذلك مارسيه - في صعوبة التمييز – مثلاً - بين الألفاظ التالية المتضمّنة لحرفي السين والصاد، وما يقابله في الفرنسية حرف "s" الذي يُنطق مشدّداً ومفخّماً في الصاد: « sbà‘ » يعني "صْبَعْ" بالعامية (إصبع بالفصحى)، و« sba‘ » يعني "سبَعْ" وهو الأسد، وبين « seb‘a » (سبعة) و« sebha » (سبحة)، وبين « sebba » (سبًّا) (وتعني السبب بالفصحى)، «sebba‘ » (سبَّعْ) (وتعني في الفصحى قام بالفعل سبع مرات، أو تتالت عليه سبعة أيام أو سبع ليال)، وبين « sbah » (صباح) و« sabbah » (صبّح) و« sebbah » (سبّح)[1].

هذا بعض ما يعترض متعلّم اللغة العربية حسب مارسيه - في نطق الحروف، خاصة الحلقية منها والمشدّدة والمفخّمة مثل الضاد والظاء والطاء والصاد التي لم يتعوّد على نطق أصوات مثلها، ولم تتعوّد أذنه على سماعها، ممّا يجعله يقع في اللبس وعدم التمييز بين الأصوات المتقاربة مثل السين والصاد والحاء والهاء والعين التي تتطلّب استعمالاً محدّداً للحلق ومخارج الحروف.

---

(1) المصدر نفسه، ص 87

يرى مارسيه أنه ليس من السهل فهم بُنية المقاطع والحروف، فإذا كان الإعراب والصرف مبسّطين، فإنّ البنية المقطعية على العكس من ذلك، تقوم على التناوب، وتتطلّب معالجة دقيقة جدّاً. فهو يذهب إلى أنّ امتلاك أساليب التعبير الخاصة باللهجات العربية يمثّل عملا قد يربك الأفكار المعتادة على اللغة المنطقية، ومن ثمّ يغيّرها، وفي ذلك إشارة إلى بُنية اللغة العاميّة التي لا تقوم على منطق محدّد شأن اللغة الفصحى، بل هي تخرق قوانين الصرف والإعراب، لتكون لغة خاصة داخل اللغة الأمّ، العربية الفصحى.

إنّ أسلوب الخطاب الساميّ يمثّل - حسب مارسيه - عالماً غريبا وشديد الغرابة بالنسبة إلى الأوروبيّ، حيث ليس من السهل أن يلج داخله، إذ لا بدّ أن تتعثّر خطواته في البداية.

يبيّن مارسيه أنه بعد سنوات عديدة من الدراسة، دراسة - اللغة العربية - يكتشف المستعرب في لغة الأمّيّ أساليب صعبة في التعبير، تغلب عليها اللغة العاطفية، وهي تعابير تمّ تجاهلها، وهذا أمر مثير للدهشة - حسب اعتقاده - ولا يمكن لشخص واحد أن يصل بمفرده إلى فكّ رموز هذه اللغة الخاصّة أو اللغة العاميّة للأمّيّ.

وفي سرده لصعوبات اللغة العربية المنطوقة، يعتقد مارسيه أنّه يجب عليه ألّا يذكر تنوّع اللهجات، لأنّ ذلك يعمّق صعوبة

تعلّم اللغة العربيّة، وهو يميّز بين مسألتين أساسيتين، كلتيهما تمثل محوراً كاملاً للدراسة، وهما اللغة العربية الفصحى الموحّدة واللغة العاميّة المتحدّث بها، المتمثلة في اللهجات، وهي متعدّدة. وهو يرى أنّ في اللغة العربية كلّ شيء مرتبط بالعروبة، سواء تعلّق الأمر باللهجات أو بالعربية الفصحى.

ب-موقفه من اللهجات والفصحى :

يتساءل مارسيه حول اللغة العربيّة: كيف يُنظر إليها؟ هل هي لغة واحدة، أم حالتان لغويتان؟ ويرى أنّ هذا السؤال دون جدوى بالنسبة إلى من اطّلع على التناقضات اللغوية القديمة لفيكتور هنري (Victor Henry)[1]، ويذهب إلى أنّ الأمر يتعلّق بحالتين في نفس اللغة مختلفتين تماماً، حيث معرفة واحدة منها لا تعني على الإطلاق معرفة الأخرى، ومتشابهتين بما فيه الكفاية، بحيث تسهّل معرفة واحدة منها اكتساب الأخرى. وفي كلّ حالة تكون أداة التعبير عن الفكر غريبة عن العادات الفكرية الغربيّة، حيث يصعب على الغربيّ النطق أو التعبير في الحالتين، بالفصحى أو بالعاميّة.

يظهر التباين - حسب مارسيه - بين تعلّم اللغة والتعبير أو التحدّث بها، فالتعبير يتطلّب أكثر معرفة ودراسة للغة حتى يكون واضحاً وسليماً، ثمّ مقبولاً يرتقي إلى المطلوب. ويشير مارسيه هنا إلى مسألة مهمّة تتعلّق بتعلّم اللغة العربية التي تتضمّن

(1) المصدر نفسه ، ص 88

مستوين من التعبير، تعبير أوّل بمثابة البنية السطحية للمفردات في وجهها المباشر والبسيط، حيث كلّ مفردة تحمل معنى واحداً مباشراً يسهل فهمه وحفظه، وهو ما يمكّنه من امتلاك أبجديات اللغة والتواصل، المتمثلة في عبارات العبور، كما عبّر عنها مارسيه، من قبيل "مرحبا"، "كيف حالك" "أنا بخير" "أين تسكن"...إلخ، وتعبير ثانٍ يتعلّق بالبنية العميقة لمفردات المعجم، حيث تحمل المفردة أكثر من معنى، وترتبط الدلالة بالسياق والاستعمال، فيكون المعنى ضمنيًا غير مباشر، كما قد يحتمل اللفظ التأويل في استعمالات عدّة تتعلّق بالمجاز والاستعارة. وكلّما بَعُد اللفظ عن معناه الأولي المباشر، صعب الوصول إلى المعنى المقصود وفهم المقول، فالأمر يتعلّق بالسياق والاستعمال الذي يختلف من خطاب إلى آخر. فمسألة فهم اللغة - خاصة إذا كانت لغة أجنبية - ليست بالأمر اليسير، بل تتطلّب دراسة ودراية معمّقة تحتاج جهداً ووقتاً غير محدّد.

2- قراءة مارسيه لتاريخ اللهجات في المغرب الكبير: مقال "كيف حصل تعريب شمال أفريقيا؟"[1]

يربط مارسيه بين تاريخ تعريب منطقة شمال أفريقيا والفتوحات، حيث تعرّبت المنطقة، وظهرت فيها لهجات مغاربية منبثقة عن

(1) W. Marçais, Comment l'Afrique du nord a été arabisée, Conférence faite à l'Université de Londres (School of Oriental and African Studies) le 26 Janvier 1939, publiée par les Annales de l'Institut d'études orientales de la Faculté des Lettres de l'Université d'Alger, IV, 1939

اللغة العربية خلال مرحلتين مختلفتين تاريخيًّا. كانت المرحلة الأولى خلال القرن السابع الميلادي الموافق للقرن الأوّل الهجري حيث وقع تعريب المدن المغاربية الكبرى، فظهرت فيها لهجاتٌ خاصّة بها، أطلق عليها مارسيه تسمية (اللهجات العربية الحضرية) وهي المتعلقة بالمدن دون الأرياف والقرى. وبدأت المرحلة الثانية في القرن الحادي عشر الميلادي، الموافق للقرن الخامس الهجري وهي المرحلة الكبرى التي شهدت هيمنة العربية، وسيطرتها، حيث حصل تعريب ريف المغرب العربي الكبير[1].

لاحظ مارسيه وجود تنوّع في اللهجات لا يشبه لهجات الحضريين من سكان المدن الكبرى، وإنما يرتبط بلهجة سكان الأرياف من البدو، لتكون لهم لغتهم الخاصة المتحدّث بها، أو ما سمّاها (باللهجات العربية البدوية)، موضّحاً كيفية انتشار العربية في صورتها الغازية للأمازيغية، والمكتسحة لأهالي شمال أفريقيا، خلال النصف الثاني من القرن السابع الميلادي. ومن ثمة رأى أنّ صورة المغرب العربي قد توضّحت بعد سيطرة العرب على المنطقة المغربية سيطرة كاملة، وأصبحت تابعة

---

(1) انظر

W. Marçais, « l'arabisation des campagnes », conférence faite à l'université de Londres (school of Oriental and African Studies) le 27 Janvier 1939, publiée par les *Annales de l'institut des études orientales* de la Faculté des Lettres de l'Université d'Alger, XIV, 1965 ; in «Comment l'Afrique du nord a été arabisée », pp. 184- 186

للمشرق العربي وللدولة الإسلامية الكبرى، بكونها إسلاميّة وعربيّة، بعد أن وقع تعريبها.

لقد ربط مارسيه بين التعدّد اللغوي والواقع السياسي، من خلال فعل التعريب الذي عدَّه تبنّي الشعب للّغة العربية، وممارستها بكونها لسان الحديث والحضارة، وهو استعمالها استعمالاً كاملاً في الحياة اليومية، وجعلها اللغة المتحدَّث بها، ووسيلة التعبير عن الأفكار والأحاسيس. كما ذكر ذلك في مقال له حول الحضور الإسلامي في الحياة الحضرية[1] وتأكيد وجود وحدة الدين الإسلامي واللغة العربية.

ينظر مارسيه إلى التعريب بكونه الانتماء إلى الحضارة العربية الإسلامية التي جعلت من لغتها العربية الفصحى لغة التعبير والإنتاج الأدبي والعلمي الذي يُعدّ إرثاً مشتركاً جديراً بالفخر والاهتمام، يعكس أهمّ ما أنجزه العرب من إنتاجات فكرية كانت نماذج ومراجع في الفكر الإنساني الأدبي والعلمي. بل رأى أنّ التعريب هو الرغبة في الانتماء إلى هذا العالم العربي الذي جعل من اللغة العربية لغته الرسمية والأساسية في الاستعمال اليومي وفي الكتب الفكرية، وهو يمثل دعوة إلى تبنّي هذه اللغة وتطبيقها كما يطبّقها أصحابها في جميع المستويات الاجتماعية والسياسية والفكرية والعاطفية.

---

(1) W. Marçais, L'Islamisme et la vie urbaine, dans « Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres », Paris, p. 86-100.

لقد ربط مارسيه بين التوسّع العربيّ السياسيّ وانتشار اللغة العربية وهيمنتها من خلال فعل التعريب، مبيّناً أنّ سياسة العرب المسلمين قامت على الترغيب والإغراء في عملية التعريب. وقد ذكر الحديث الذي قامت عليه الدعاية لمجد الفتح الإسلامي الجديد المتمثل في القولين التاليين: "من أتى أفريقية لقي خيرًا وخيرًا" و"في أفريقية يوجد باب من أبواب الجنة"[1]. وأشار مارسيه إلى أن هؤلاء المهاجرين كانوا من أصول مختلفة، منهم القيسيون واليمنيون والتميميون والقرشيون، والأنصار، ومنهم كذلك من جند خراسان[2]. حيث تمركز عدد كبير من المهاجرين لمدّة مائة وخمسين سنة في مدن كلٍّ من تونس وليبيا والجزائر[3]، فشهدت هذه الفترة تغيّرًا لغوياً، ازدهرت فيه اللغة العربية من خلال تشييد المساجد والمدارس لتعليم الأهالي أركان الإسلام والمبادئ الأساسية للغة العربية، ممّا جعل السكان العرب يسهرون على تعريب أهالي المدن والقرى التي استوطنوها، حتّى يتمّ انخراطهم في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومن ثمة يحصل الامتداد العربي الإسلامي وهيمنة اللغة العربية، لتكون اللغة الأساسية أمام تعدّد اللهجات المتحدّث بها.

لقد انشغل مارسيه في بحثه الإثنوغرافي في اللهجات، بتتبّع

---

(1) W. Marçais, Comment l’Afrique du nord a été arabisée, p 177

(2) المصدر نفسه، ص 177

(3) المصدر نفسه، ص 177

مسار تطوّر اللغة العربية، وكيفية استعمالها القائم على الاختلاف في النطق وفي المفردات التي تتصارع بين العربية ورواسب الأمازيغية. ولاحظ أنّ وجود العرب بمختلف أصولهم من الجزيرة العربية في المدن البيزنطية القديمة قد أنتج تنوّعاً سكنياً خلق بدوره تنوّعاً لغوياً يعكس ثراء اللغة العربية التي تأثرت بدورها بما عاشته من هجرة وفتوحات.

كما بحث مارسيه في فوارق اللغة المتحدّث بها في المجموعة الواحدة التي لا تخلو من اختلاف صوتي أو معجميّ. ومن خلال اطّلاعه على مجموعة من المصادر، ولعلّ أهمّها "أدب المعلّمين" للشيخ سحنون، أيقن مارسيه أنّ اللغة العربية المتحدّث بها في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة لم تكن مختلفة عن اللغة العربية الفصحى، بل كانت تقريباً هي نفسها، ولربّما بشكل أبسط. وأوضح أنه لم يكن من السهل أن تنتشر العربية في المغرب الكبير لولا السياسة الناجحة التي اعتمدتها الدولة للتشجيع على اعتناق اللغة العربية وانتشارها وانتشار الإسلام. وقد تحقّق ذلك على مراحل زمنية متفاوتة، وبعد جهود جبّارة لإتمام تعريب كلّ المناطق التي لم تصلها لغة العرب في المغرب الكبير إلا في فترات لاحقة(1).

لاحظ مارسيه أنّ هذا اللون الجديد من اللغة العربية،

(1) المصدر نفسه، ص 178

وتحديداً بعد العهد الإدريسيّ، لم يكن نوعاً واحدًا، بل تفرّع إلى لهجات مختلفة، قسّمها إلى نوعين: يرتبط النوع الأوّل بالمدن مثل القيروان وتونس وتلمسان وفاس، حيث وُجدت حالات لغوية متشابهة على مستوى التركيب والمعجم والمستوى الصوتي. ويتعلق النوع الثاني بالأرياف التي يسكنها البدو في الجنوب التونسي والريف الجزائري وأقصى جنوب المغرب. وانتبه مارسيه إلى وجود نوع ثالث يتعلّق بالقرى أطلق عليه تسمية "القرويّ"، نسبة إلى القرية التي تأتي في مرتبة وسطية بين الريف والمدينة، والتي توجد بها ضرورةً لهجة خاصة بها، تكون في منزلة بين المنزلتين، لا هي ريفية ولا هي حضرية، ولكنّها تتلوّن بلون خاصّ يختلف من قرية إلى أخرى، حسب موقعها الجغرافي والاجتماعي والثقافي. وهذا - في حدّ ذاته - تعدّد لغويّ داخل اللهجات، يخلق ازدواجية لغوية مختلفة على مستوى الجهات والأفراد.

فاللغة العربية المتحدّث بها في المغرب الكبير متعدّدة الاستعمال، وهذا عائد -حسب مارسيه- إلى التعدّد والاختلاف في طرق وصولها إليه، وفي أزمنة متباعدة عن بعضها، ممّا جعلها لهجات عديدة داخل لغة عربية واحدة، سافرت من المدن العريقة بين الفاتحين العرب الأوائل، وانتشرت، ووصلت إلى المغرب، حاملة تراثها وإرثها الثابت، ولكن متلوّنة في نفس الوقت بضروب من الاستعمالات واللهجات لم تزدها إلا ثراء وعمقاً.

وأمام هذا التنوّع اللغويّ، تسنّى لمارسيه أن يسجّل في نصوصه ما نتج عن هذه الأنواع من الحديث الذي لا شكّ بكونه مزيجاً من الإبداعات الفردية والجماعية على المستوى اللغوي والثقافي، ولكن بطريقة متفاوتة في الهيمنة، من خلال سيطرة لهجة على أخرى. كما اهتمّ مارسيه في بحثه هذا بالفوارق بين اللهجات المغاربية التي لاحظ فيها وجود خليط متجانس بين العربية ورواسب من الأمازيغية، كما هو الشأن في اللهجات الجزائرية والمغربية المتأثرة باللغة الأمازيغية الأصلية لأهل الجزائر والمغرب، قبل وصول الإسلام إلى منطقتهم.

إنّ تعدّد اللهجات المغاربية واختلافها، هو ما جعل المغرب الكبير حسب مارسيه - يتميّز بمدى الابتكارات اللغوية في اللهجات المختلفة عن العربية الفصحى، لأسباب ثقافية وجغرافية وسياسية، ولكن رغم ثراء اللهجات وسيطرتها على حساب الفصحى، لم تصل أيّ من هذه اللهجات المغاربية - حسب رأيه - إلى مكانة اللغة الأدبية الفصحى، ولم تحقق ما حققته من هيبة وقيمة، مع كون اللغة العاميّة تزخر بإبداعات لغوية فردية.

إنّ ما وصل إليه مارسيه من نتائج يعكس مدى أهمية ما قام به من حفر في ذاكرة اللغة العربية، وتنقيب في آليات التخاطب اللساني، مستنداً على أهمّ مدخل، وهو اللغة الممارَسة والمتحدّث بها، المنطوقة وليست المكتوبة، تلك التي تتناقلها الألسن وتتبادلها، وليست المصفوفة في الكتب والدواوين، وإن

كان أصلهما ومنبتهما واحدًا، إلا أنه بفعل التاريخ وتحوّلاته صار الأصل حاملاً لفروع لا تقلّ أهمية عنه، لما تعكسه من موروث ثقافي واجتماعيّ، لولاه لما كان للغة العربية وثقافتها هذا التنوّع والثراء الذي نجده في معجمها وجذورها، وهو ما أنتج هذا التفاعل اللساني الذي تحدث عنه مارسيه، بين أفراد المناطق المغاربية عبر فضاء جغرافي، تجسّد في تفاعل اللهجات.

يبدو واضحاً مما سبق، معرفة مارسيه الشاملة لتاريخ اللهجات واللغة العربية، وإدراكه للصلة المتينة بين انتشار الإسلام والتعريب، ولا يفوتنا أن نلحظ دقّة هذا الرجل اللافتة للانتباه، وتتبّعه مسار التعريب التاريخي فلم يخل عمله من التدقيق في التواريخ، بل في أسماء القبائل التي هاجرت إلى المغرب الكبير، وسكنت فيه، مع ذكر أهمّ التفاصيل التي جعلت مجموعة من اللهجات تنمو وتزدهر على حساب لهجات أخرى.

من الطبيعيّ أن يلحظ القارئ اهتمام مارسيه باللهجات أكثر من اهتمامه بالعربية الفصحى، أي بالشفويّ المنطوق أكثر من المكتوب، وذلك لسيطرة اللغة العاميّة أولاً على الحياة اليومية، وثانياً لتعدّد المنطوق واختلافه أمام وحدة المكتوب، تمثّله العربية الفصحى القاسم المشترك بين جميع الأقطار العربية المختلفة اللهجات، إذ توحّدهم لغة الضادّ، لغة القرآن أولاً، والشعر والأدب ثانياً. وهو ما لاحظه مارسيه في إشارته إلى وحدة العربية الفصحى التي تجمع بين كل أقطار العالم العربي،

من المحيط إلى الخليج، رغم اختلاف اللهجات فيه، بين شرقه وغربه، بل في كلّ منطقة لهجة خاصة بها داخل القطر الواحد، العائدة - حسب رأيه - إلى وحدة المرجع الديني المتمثل في النصّ القرآني الذي جمعهم في لغة واحدة واضحة، رغم تعدّد لهجاتهم واستعمالاتهم للعربية، لتكون لغة القرآن هي اللغة الموحّدة للأمّة المختلفة والجامعة لها، لتكون مطلقة في الزمان والمكان، صامدة صمود النصّ المقدّس أمام رياح التغيير والاستعمال الذي يكاد يطمس هويتها في اللغة العامية المتعددة والمختلفة، ولكنها تظلّ ثابتة في فصحاها لا يشوبها خلل، محافظة على جذورها الأصول، ونظامها الراسخ في الكتابة والقراءة وفي الذهن والذاكرة.

3- المعجمية العربية: قراءة مارسيه للمعاجم العربية: محاضرة في "المعجمية العربية"[1]

لقد طال نظر مارسيه جمع اللغة الذّي عدَّهُ فناً من فنون الثقافة العربية، وقد ألقى نظرة عن نُبَذٍ من تاريخه وأطواره ومراحله، وما ميّزه ليكون عملاً لافتاً للنظر، وجديراً بالاهتمام. ويعدّ مارسيه علم اللغة "دراسة المفردات من حيث صورتها ووضعها، يعني الكلمات التي ينطق بها الناطق، ويرسمها

(1) William Marçais, La lexicographie arabe, Conférence faite en 1940 à Rabat (Institut des Hautes Etudes marocaines),

الكاتب، متحرّياً أداء حروفها ساكنها ومحرّكها ليُفهِم غيرَه معانيَ لها وُضِعت، وبها في العقل والحافظة قُرنت"[1]. فكانت دراسة المفردات محلّ بحث واعتناء قام به ثلّة من الباحثين، من أواخر القرن الأوّل.

ويرى مارسيه أنّ دافعهم إلى الاهتمام باللّغة وجمعها هو الحفاظ على نقاء العربيّة لأسباب دينيّة، باعتبارها لغة القرآن الكريم ، وهو غير المخطئ في ذلك، بما أنّه قد كثرت الأجناس في تلك الفترة، باختلاط العرب بالرقّ والموالي من الروم والزنج والسُّغد والسّند وفارس وتوران[2]، فامتزج العنصر العربيّ بعناصر أخرى مختلفة، وهو ما بينه مارسيه، حيث ذكر أنه قد نشأ في الأمصار جيل جديد تشترك أفراده في اتّخاذ العربية لسان المحادثة والمعاملات، "ففشا الفساد في اللغة، وتعكّر صفوها، وتباعدت عن لسان ربيعةَ ومُضَرَ"[3]، ونتج عن ذلك اختلاف في نطق الكلام، وتباعد في معانيه. فقد لاحظ أنّ أهل الحضر قد نطقوا بالألفاظ في كلامهم العادي، على غير ما هي عليه في الكلام الفصيح، وتوسّعوا في مدلولات الكلم، وتركوا منها بعض المعاني التي كانت لها في نجد والحجاز، واعتاضوا عنها بمعان محدَثة، وهو ما جعل المفكّرين يخافون

(1) المصدر نفسه، ص147 .
(2) المصدر نفسه ، ص 148
(3) المصدر نفسه، ص 148

على القرآن أن يتسرّب إليه اللّحن، وأن ينغلق على الأفهام [1]. وهذا الدافع الدينيّ لوحده كفيل بأن يهبّ جمع من العلماء إلى حفظ صحيح اللغة العربية وفصيحها، حفاظًا على لغة القرآن المقدّسة.

أ- موقفه من الجمع والترتيب

بحث مارسيه في مدوّنات أعلام اللغة العربية الأوائل المؤسّسين لمعجم اللغة، ورأى أنّهم ينقسمون إلى طبقتين. تشمل الطبقة الأولى من اللغويين بعض القرّاء المشهورين، مثل أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثّقفيّ، وهما من المبتكرين والمؤسّسين الذين ألّفوا كتباً، ولكن لم يصلنا منها شيء - حسب اعتقاده - بينما عُرِفت مذاهبهم من خلال تصانيف تلاميذهم. وتمثل الطبقة الثانية تلاميذ الطبقة الأولى، ومنهم الخليل بن أحمد وأبو زيد الأنصاريّ والأصمعيّ والكسائيّ، وهؤلاء هم الذين تخرّج على أيديهم أعيان من الجيل الثالث، كأبي حاتم السّجستانيّ وابن السِّكّيت والمبرَّد وأبي عُبيد القاسم بن سلّام.

وأكّد مارسيه أنّ الباعث الدينيّ كان عند جميعهم الأهمَّ، وهو الأرجح، رغم ما يدفعهم من رغبة في تحقيق متعة البحث والوصول للغاية. ولم يغفل - في بحثه حول مؤسّسي معجم اللغة العربية - عن الأساليب التي اتّبعها هؤلاء الأعلام، فرأى

(1) المصدر نفسه، ص 148

أنّ هذه الأساليب التي اتّخذها رجال الطبقتين الأولى والثانية في دراسة اللغة وتأليفها متّجهة إلى ثلاثة أوجه، فالأول - كما رآه - هو تدوين المفردات وتفسيرها حيثما اتّفق، وكما تيسّر للباحث سماعُها وتقييدها، غير متوخّ في ذلك لترتيب وتنظيم، والمثلان الأعليان لهذا الصنف من التأليف في القرنين الثاني والثالث - حسب رأيه - هما نوادر أبي زيد الأنصاريّ، والكامل للمبرّد. فالكتابان حسب اعتقاده - وإن غلبت عليهما الصبغة اللغوية - ليسا في دراسة اللغة، فهو يرى أنه لم يتمحّض المُصنِّف في كليهما لدراسة اللغة، حيث ينزع نزوعاً شديداً إلى نواح أخرى من الثقافة، فيغمر القارئَ بسيل عُرام -على حدّ عبارته- من خُطَب وأشعار وأمثال وأخبار، حيث رأى أنّ حضور اللغة انحصر في تفسير غريب نثرها ونظمها، والاستشهاد به في البحث عن المفردات، وفي نقدها وتحديد معانيها.[1]

والوجه الثاني الذي رآه مارسيه هو اعتماد جانب المعنى للفظ في تأليف اللغة، فيكون جمع الأجناس بحسب المعاني، وجعل كلّ جنس موضوع كتاب أو جزء كتاب. وهي الطريقة التي اتبعها الأصمعيّ في أكثر نفثاته، وقد ذكر مارسيه منها ما ألّفه في النّخل والكرْم، وما ألّفه في الشّاء، وكتاباً آخر في الإبل، مشيداً بمنهج الأصمعيّ القائم على الدقّة والوضوح والتفصيل. فلفت نظره كتابه في الإبل الذي لاحظ فيه مارسيه أنه

---

(1) المصدر نفسه ، ص 150

استقصى جمع كلّ ما يتعلّق بموضوع الجَمل من الكلِم، أسماءً كانت أو أفعالاً، مع تحديده للألفاظ والمعاني، وتفريقه بين ما يُوهم تقاربُه الترادفَ.

كما وقف كذلك على ما شدّه في كتاب الإبل، مشيرًا إلى ذكر أسنان الحيوان وأصواته، من حنين وهدير ورُغاء وبُغام، وأمراضه من عُرّ وغُدّة ونُحاز، وأظمائه من غِبّ ورِبْع وخِمْس وسِدْس... إلخ[1]. وأشاد بمنهجه هذا القائم على ذكر التفاصيل، ثمّ التعميم على جميع الأصناف التي ذكرها، مشيراً إلى أنه نفس المأخذ الذي اتخذه ابن سيّده في المُخصّص.

وأمّا الوجه الثالث الذي عدَّه مارسيه وجه التدوين، رأى أنه قام على وضع معجم يشمل كلّ المفردات على نمط خاصّ، فيكون مرجعاً يعود إليه كلّ من رام البحث عن هيئة إحدى المفردات، وعن معناها، أو معانيها، إن كانت من المشترك.

رأى مارسيه أنّ كتاب العين هو أوّل كتاب ألّف على النمط الأخير في جمع اللغة وضبطها، والذي يُنسب في تاريخ الأدب العربيّ إلى الخليل بن أحمد الأزْديّ الفراهيديّ، مشيرًا إلى أنّ عددًا من العلماء قد أنكر ذلك، مثل الأزهريّ في مقدّمة التهذيب، والسّيوطيّ في المُزهر. ولكنّ مارسيه - وهو المدقّق بطبعه في بحثه رأى أنّه من المفترض أن يكون الخليل من رسم

(1) المصدر نفسه، ص 151

الكتاب، وجزّأ مادّته، وبوّب أبوابه، وشرع في تأليفه، وتوفّي قبل أن يُكمل حشوه، فأتمّه غيرُه[1]. وهنا يشير مارسيه إلى صعوبة العمل المتمثلة في مسألتين، هما: الجمع والتأليف، وهما من المسائل الأساسية التي تعترض واضعي القواميس والمعاجم.

فالمسألة الأولى تتمثّل - حسب مارسيه - في كيفية حصر لغة العرب، والمسألة الثانية في كيفية ترتيبها. ورأى أنّ الحلّ الذي لجأ إليه واضع المعجم في المسألة الأولى لتذليل الصعوبة هو طريقة لغوية حسابية، تتمثّل في إثبات عدد الأصول التي تُجمَع من كلّ لفظ مركّب من حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة في حالة إعمال القلب والتقديم والتأخير، وتطريف ما كان حشواً لمعرفة الثنائيّ المنصرف على وجهين، نحو "دقَّ" و"قدَّ"، والثلاثيّ على ستّة أوجه، نحو "عَرَبَ" و"عَبَرَ" و"رعَبَ" و"ربَعَ" و"برَعَ" و"بعَرَ"، والرّباعيّ الصحيح على أربعة وعشرين وجهًا[2]، إلى غير ذلك من الأمثلة.

والمسألة الثانية تمّت - حسب مارسيه - بتنسيق الأصول حسب أوائلها، مع اتخاذ ترتيب للحروف بمراعاة مخارجها، فكان البدء بحروف الحلق، ثم ما بعدها من حروف الحنك، ثمّ الأضراس، ثمّ الشّفة، وجعل حروف العلّة آخرًا، وهي الحروف

---

(1) المصدر نفسه، ص 151

(2) المصدر نفسه، ص 152

الهوائيّة. وأشار مارسيه إلى أنّ واضع المعجم قد بدأ بحرف العين- وهو من حروف الحلق- لأنّه عنده من أقصاه، فسمّى الكتاب كتاب العين، كونه أوّل أجزائه[1].

لم ينظر مارسيه في كيفية جمع الألفاظ ووضعها فحسب في كتاب العين، بل نظر في كيفية ترتيب الحروف والألفاظ، والأساس الذي قام عليه الترتيب، والمنهج المتّخذ في ذلك، فرأى أنّ كلّ أصل من الكلم بمنزلة سلسلة متصلة، حلقاتها الأوجه التي يُنتجها القلب والتقديم والتأخير من خلال البحث في كلّ أصل، والانتقال من وجه إلى وجه، من "عَقّ" مثلا إلى "قعّ" في الثنائي، ومن "حرب" مثلاً إلى "رحب" و"حبر" و"ربح" و"برح" و"بحر" في الثلاثي، وتبيّن من الوجوه ما تلفّظت به العرب، وهو المستعمل وما رغبت عنه وهو المُهْمَل، فمن الحروف الأصول الثلاثة (ع، ج، ز)، مثلاً، نجد "عجز" و"زعج" و"جزع" من المستعمل، و"عزج" و"جعز" و"زجع" من المهمل.[2]

لقد أعجب مارسيه بكتاب العين الذي شدّه منهجه في ترتيب الألفاظ وجمعها، مشيرًا إلى الوسائل التي اعتمدها المؤلّف في حصر جميع الكلمات العربية من خلال المنهج العلمي الذي توخّاه في الجمع والترتيب. ويظنّ مارسيه أنّ وراء

(1) المصدر نفسه، ص 152

(2) المصدر نفسه، ص 153

ذلك فلسفة ونظريّة تتمثّل في الفرق بين القدرة والفعل، حيث كان المهمل من الألفاظ ما حصر في القدرة والإمكان، ولكنه لم يرتق لحيّز الفعل والتطبيق والممارسة، وكان المستعمل ما تجاوز حدود الإمكان إلى دائرة المكان، حيث وجد في حيّز الفعل والاستعمال. ومهما كان الأمر، فإنّ عمل المؤلف - حسب مارسيه - يعدّ عبقريًّا ومن قبيل الابتكار[1].

فما يحكم ثبات المفردات هو استعمالها وتداولها، وما رسخ من مفردات المعجم العربي هو ما تداولته العرب، ورسخ في الذاكرة اللغوية من ألفاظ حافظ عليها الاستعمال الشفوي قبل أن تصل إلى مرحلة أكثر حفظًا لها، وهي تدوينها في مدوّنات معجمية.

إنّ ما أشار إليه مارسيه من ترتيب للوحدات المعجمية في كتاب العين حسب الحروف الأصول، وما يتعلّق بالجذر، ومن ثمّة الاشتقاق، لا يمثل منهجًا أساسيًا في المعاجم، وسنّة اتبعها واضعو المعاجم العربية فحسب، وإنما يعكس علاقة اللغة والمعجم بالواقع والاستعمال، حيث لا يكون للمفردة معنى إلا في سياق استعمالها، فالاستعمال هو الذي يحكم على اللفظ بالحياة أو الموت، فكلّ ما هو مستعمل ينمو ويثبت، في حين لا يمكن أن يكون للمهمل وجود. فالمعجم هو ما استُعمل من الألفاظ، وما تداول على مستوى تطبيقيّ، ولا يمكن أن يكون مجرّد صيغ نظريّة.

---

(1) المصدر نفسه، ص 153

ولم يكتف مارسيه بتتبعّ كتاب العين وما ميّزه من منهج في الترتيب والجمع، وما أحاط به من شوارد الألفاظ، بل بحث فيما شابه العين من مؤلّفات، مقارنًا بينها، ذاكرًا نقاط الاختلاف والائتلاف بينها. فذكر ممّا أُلِّف على مراسم كتاب العين في القرن الخامس (المُحكَم والمحيط الأعظم) لابن سيده المُرسيّ الأندلسيّ، مبيّنًا أنه لم يُطبَع منه شيء إلى الآن، على وجود نسخ منه في كُتُبْخانات الشرق والغرب[1].

وأكّد مارسيه على تمسّك ابن سيده بأساليب الخليل في ترتيب الحروف، وجمع وجوه الأصول، غير مكترث للمناهج الجديدة، التي نَهجها الجوهريّ في أواخر القرن الرابع. وفي بحثه في المناهج الجديدة، تتبّع مارسيه منهج أبي نصر إسماعيل الجوهريّ في كتابه (الصّحاح) الذي عدّه مجدّداً ومختلفاً عن كتاب العين، فوجد أنّه اعتمد التفريق بين حلق السلاسل الخليلية، فتنثّر منها ما كان منظومًا، وشتّت شمل أوجه الألفاظ المجتمع في حروفها الأصول وأوجه استعمالها، مثل "برع وبعر وربع ورعب وعبر وعرب"، ورتّب المفردات على التهجّي. فكان كتابه - كما أوضح ذلك مارسيه - قريب المأخذ، سهل المراجعة، ألغى فيه ذكر المهمل، واقتصر على الصحيح من اللغة، فكان الأقرب والأسهل في الاستعمال.

وأثنى مارسيه على كتاب الصّحاح للجوهريّ، من خلال

---

(1) المصدر نفسه، ص 156

اعتراف الأدباء بما فيه من حسن التنظيم وتخفيف الأمر على القارئ، فكان مثالاً للاحتذاء به، فنحا من عني بتدوين اللغة منحاه وامتثل ترتيبه. كما ذكر من هؤلاء الصّغانيّ صاحب العُباب، وابن منظور صاحب لسان العرب في القرن السابع، والفيروزآباديّ صاحب القاموس المحيط في القرن الثامن[1].

لقد أشار مارسيه إلى عدم وفرة النسخ المخطوطة من عُباب الصّغانيّ، رغم شهرة الكتاب وذيوع صيته. أمّا بالنسبة إلى لسان العرب لابن منظور، فقد أشاد بتميّزه وتفرّده، وعَدّهُ "التبر النضير العديم النّظير"[2]، فرأى فيه مرجعاً لكلّ من درس الشعر العربيّ والحديث النبويّ والأثر الصّحابيّ. ليكون أمّاً من أهمّ أمّهات الكتب، وقد أبدى مارسيه تعجّبه من عدم ذكر السّيوطي في كتابه المُزهر لهذه الأمّ - على حدّ قوله - رغم ترجمته لصاحب اللسان، وثنائه عليه.

كما نظر مارسيه في كتاب الإمام مجد الدين الفيروزآباديّ، فرأى أنّه قد جمع بين عُباب الصّغانيّ، ومُحكَم ابن سيده، وغيرهما من الأمّهات، ممّا جعله تأليفًا مطوّلاً كبير الحجم، يعجز الطلاب على تحصيله، فعمد إلى تلخيصه والحذف منه، حتى أنجز من الأصل ما هو أوجز. فكان أن أحرز القاموس شهرة وإقبالاً، وصار معروفًا عند الخاصّ والعامّ. ورأى أنّ صاحب القاموس لم يقف على كتاب ابن منظور، أو لم يهتمّ به، فلم

(1) المصدر نفسه، ص 158

(2) المصدر نفسه، ص 159

يذكره في مراجعه. في حين أنّ شارح القاموس ومؤلّف تاج العروس، وهو السيّد المُرتضى الزّبيديّ، قد أخذ من اللسان، واعتمده، بعد أن درسه، وأمعن في قراءته.

إنّ ما يلفت نظرنا في بحث مارسيه في معجم اللغة العربية، ليس فقط تتبّعه لأمّهات الكتب التي جمعت اللغة العربية، وقراءتها قراءة علمية لا تخلو من ملاحظات واستنتاجات، بل ما ذهب إليه ما وراء القراءة والدرس، من مقارنة دقيقة بين الكتاب والآخر، بل النظر في موقف كلّ مؤلّف لاحق من مؤلّف سابق، وما أضافه، وما غفل عنه، وما ذكره، وما غاب عن ذكره. فعمله ليس مجرّد قراءة ومراجعة للمعجم العربي، بل هو تنقيب وتنقير في شوارد الملاحظات، وفيما غفل عنه بعض الدارسين والمحققين، ومنهم العرب، في تقديمهم لأمهات الكتب وتحقيقها، وهو عمل يُذكر له، فيحسب.

وممّا تميّز به مارسيه - إلى جانب دقة بحثه وإتقان عمله - هو تواضعه فيما قدّم وكتب، والتواضع من شيم الكبار كما نعلم، فهو يصف عمله هذا، وبحثه الدقيق والكثيف بالاختصار والاقتصار، قائلاً: "إنّ عُجالتي هذه، وإن اقتصرت فيها على الطّفيف، وأهملت الكثيف، فنفس موضوعها تدعو إلى طرح مسائل تكميلية على بساط البحث"[1].

(1) المصدر نفسه ، ص 160

لم يكتف مارسيه بالبحث والتنقير في المعاجم العربية، كما ذكرنا، وإنّما نظر كذلك في مصادر المؤلّفين لأمهات الكتب، ومدى قيمتها العلمية.

ب – قراءته لمصادر المعاجم :

أوّل مصدر لدواوين اللغة حدّده مارسيه هو القرآن العظيم، حيث لا يغفل على الناظر وجوده في المرتبة الأولى للنهل من مفرداته ومعانيه. فلا تخلو مدوّنة لغوية من الاستناد إلى ألفاظ القرآن الكريم التي تُعدّ لُبّ كلام العرب وزُبدته، وعليه كان اعتماد الفقهاء والحكماء والشعراء والأدباء والبلغاء في النظم والنثر، فكان هو الأصل والجوهر، وغيره الفرع والعرض من الألفاظ والكلام.

أمّا المصدر الثاني الذي حدّده مارسيه فهو الحديث والأثر، حيث كان تفسير الحديث من أكبر الدوافع لجمع اللغة ودراستها. فكان الاستشهاد بالحديث من أكثر استعمال النحاة في شروحهم، ومدوّني اللغة في تأكيد المعنى وتقريبه. ويتمثّل المصدر الثالث في الشعر الذي أشاد بمكانته عند العرب، فعدَّه ديوانهم الذي به حُفظت الأنساب، وعُرفت المآثر، ومنه تُعلِّمت اللغة وفُسِّر ما أشكل من غريب الكتاب والسنّة. ومن خلال نظره في القيمة الأدبية والاجتماعية للشعر العربي - التي يرى أنه لا يتنازع فيها اثنان، من حيث الجودة التي غلبت عليه إلى حدّ العجز عن

تفضيل شاعر أو شعر على آخر فكان بينهم التنافس في الجودة والإبداع - ذكر مارسيه أنّ الشعر الجاهليّ والمخضرم والإسلاميّ هو ما اتّفق عليه أئمّة اللغة بأنه يجدر الاحتجاج به وتقييده في دواوين اللغة. وقد أشار إلى عدم اعتماد شعر المولّدين الذين جاؤوا بعد انتقال الخلافة من بني أميّة إلى بني عبّاس، حيث لا يُعتمد على كلامهم، ولا يُقيّد منه شيء في معاجم اللغة.

وكانت الأمثال القديمة المصدر الرابع الذي حدّده مارسيه، ويرى أنها حكمة الأمم الصالحة لكلّ زمان ومكان، حيث تظلّ جارية أبد الدهر، لا تتغيّر قلبًا وقالبًا، لما لها من إيجاز العبارة ودقّة الضرب وإحكامه، ما يجعل ألفاظها بمأمن من التغيير[1].

وأمّا المصدر الخامس فهو السّماع من الأعراب الذين لم يُصبْ لغتَهم من الفساد ما أصاب لهجة الأمصار - كما بيّن ذلك مارسيه - فكانت اللغة الفصيحة الأصيلة التي نطق بها الأعراب خالية من الشوائب، المصدرَ الذي تزوّد به اللّغويّون في تدوينهم للمعاجم، حيث كان خروجهم إلى البادية من أجل مشافهتهم أهلها، وكتابة كلامهم من أفواههم كما ينطق به كبارهم وصغارهم. وقد أشار مارسيه إلى الأصمعيّ الذي كثيراً ما يذكر استفادته من الأعراب، وسماعه لهم، ومحادثته معهم. ولم يغفل عن ذكر كلّ من أبي زيد الأنصاريّ، والخليل بن أحمد في القرن الثاني وأوائل

(1) المصدر نفسه ، ص 164

القرن الثالث، ممّن اعتمد على سماع الأعراب. مضيفًا ممّن اتّبع كذلك هذا السَّنن في مشافهة الأعراب في باديتهم لكتابة كلامهم، كلاً من الجوهريّ والأزهريّ في القرن الرابع، متقصّيًا أقوالهم في ما قدّموه من تأكيدهم على اعتماد كلام الأعراب من البادية، أو كما قال عنهم مارسيه: "سكّان الوبر"[1].

هذه كانت مصادر المعاجم الكبار، كما حدّدها مارسيه، مدقّقًا في تفاصيلها وقيمتها اللغوية والاجتماعية، حيث يتصدّر القرآن الكريم المنزلة الأكبر، ليكون المصدر الأوّل والأهمّ على الإطلاق، ثمّ يليه الحديث والأثر، ثم الشعر والأمثال، وأخيرا السّماع من الأعراب الخالصين الفصيحين.

وتساءل مارسيه - بعد بحثه العميق في معاجم اللغة العربية ومصادرها، ملاحظا ما كابده اللغويون من جهد لجمعها - عن مدى نجاح عملهم، مؤكّدًا على صعوبة تمام هذا العمل الذي يظلّ دائمًا ناقصًا. وقد اعتمد في ذلك على قول الإمام الشافعي، بأنّ "كلام العرب لا يُحيط به إلّا نبيّ"[2]، وعلى ما صرّح به العلماء، بأنّ ما ذهب من الشعر القديم والأمثال والنوادر قبل أن ينتقل من الأفواه إلى الطوامير أكثر ممّا انتهى إلينا.

فرصيد اللغة العربية - حسب مارسيه - أكبر ممّا هو عليه

(1) المصدر نفسه ، ص 166

(2) المصدر نفسه ، ص 168

من تدوين، حيث لا أحد يعلم مبتداه ولا منتهاه، فهو يرى أنّ ما ذهب مع المشافهة أكثر ممّا بقي مع المدوّن والمجمّع. وما وصل إلى مرحلة الجمع والوضع في معاجم اللغة ما هو إلا القليل من جهد اللغويين أنفسهم في أخذهم من أعراب البادية. ويرى مارسيه أنّ لنشاطهم هذا حدودًا اجتماعية وطبيعية وسياسية، مبيّنًا أنّ القليل من اللّغويّين من تجاوز في تجواله أواخر الحجاز ونجْدٍ وتهامة واليمامة، واقتحم حوامي الرّبع الخالي ورمال الأحقاف وكثبان الفلَج وأقاويزَ يبْرينَ[1]، رغم أنّ ما جمعوه كثير، وما فاتهم غير ضئيل.

يعتقد مارسيه أنّه يوجد في اللهجات الدارجة المنتشرة من البحر الهنديّ إلى البحر المحيط نصيب من المفردات ينتمي أصلها إلى العربية العتيقة والعريقة، غير أنّ اللغويين لم يصلوا إليها، فلم يكتبوها. ولعلّه فاتنا - كما يقول - كنز عظيم من لغة الضادّ لم يصلْنا، ولم يُكتب لنا أن نراه، وهو كثير في اللغة والأدب والعلوم، قد ضاع منها أكثر ممّا بقي، لأسباب شتّى.

لقد كانت نظرة مارسيه إلى اللغة العربية ومعاجمها نظرة العالم المحقّق والمدقّق، ولكنها لم تَخْلُ من إعجاب وتقدير، مشيدًا في كلّ مرّة بعمل اللغويين الذين بذلوا جهدًا في جمع مفردات العربية من مصادر شتى، وما انتقوه من فصيح اللغة

(1) المصدر نفسه ، ص 168

وعريقها، وما أهملوه عن قصد من غريبها وما لا يُستعمل منها، ومُنوّهًا بالطرق التي توخّوها في الترتيب والتقسيم، معتمدين على الجذور الأصول وأوجه الصرف والاشتقاق، فكان عملهم موسوعيًا ضخمًا، يحمل من القرآن والحديث والشعر والأمثال بمقـدار، وأثـمر ما وصلنا من أمّهات الكتب الكبار التي كانت - وما زالت - دليل الباحث في جواهر مفردات اللغة العربية.

هذا، وقد أكّد مارسيه على أسبقية العرب في تدوين اللغة، من خلال ارتباط دواوين اللغة العربية بالصّرف والاشتقاق ارتباطًا لا تنفصم عُراه، إلى حدّ أنّ ترتيبها بأسره مبنيّ عليهما[1]. فالعرب سبّاقون في تدوين اللغة، وكان عملهم أصلاً وجوهرًا، اعتمدوا في ذلك على ما أتاحت لهم لغتهم من مناهل ومصادر، وعلى ما قامت عليه اللغة من نظام في الصرف والاشتقاق، وهي لغة الجذر الذي تتفرّد به، ومنه تنطلق في مشتقاتها، وتمتدّ وتتوسّع في معجمها.

4- نصوص عربية من تكرونة[2]

لقد أَوْلى مارسيه اهتمامًا خاصًا للنموذج القرويّ المرتبط بسكان القرى، ولعلّ أشهرها نموذج تكرونة، من خلال النصوص

(1) المصدر نفسه، ص 169

(2) William Marçais et Abderrahmân Guîga, Textes Arabes de Takroûna, transcription, traduction annotée, glossaire (1925)

التي أعدّها باللّغة العربيّة الدّارجة المستعملة في قرية تكرونة في الساحل التونسي، عن عادات النّاس فيها وتقاليدهم، بالتعاون مع صديقه أصيل تكرونة عبد الرّحمان بن محمد الغريب قيقة[1]، وقد طبعت في باريس سنة 1925.

يمثّل هذا الكتاب المتكوّن من ثمانية أجزاء - مسردًا ودراسةً للمفردات العربية وخصائص لهجة تكرونة، وتَمَثّل الجزء الأول[2] في مسرد يعرض مجموعة المفردات التي شكّلت معجم اللغة المتحدَّث بها في تكرونة، فنظر مارسيه في الجانب الصوتي للمفردات، والجانب الدلالي وارتباطه بالاستعمال ومعانيه، حيث تُعدّ دراسته دراسة معجمية تطبيقية، تقترن فيها دلالة الصوت بالمعنى السياقيّ الذي يحدّده الاستعمال.

---

(1) عبد الرّحمان بن محمد الغريب قيقة (1889- 1960) من مواليد تكرونة، (وهي قرية تقع في الساحل التونسي، قرب النفيضة)، درس بالمدرسة الصّادقية ثمّ بمدرسة ترشيح المعلّمين، وتولّى التدريس معلّمًا في بنزرت ثمّ قفصة وسليانة وتونس، إلى أن أحيل على التقاعد سنة 1948. وقد عمل مع صديقه المستشرق الفرنسي وليام مارسيه على إعداد نصوص باللّغة العربيّة الدّارجة المستعملة في قرية تكرونة عن عادات النّاس فيها وتقاليدهم، طبعت في باريس سنة 1925. كما كتب في الأدب الشعبي وترجم منه إلى اللّغة الفرنسيّة، وألّف قصصًا بالعربيّة الدارجة، وبالفرنسية، أشهرها: "من أقاصيص بني هلال" الفولكلوريّة التي نقلها إلى الفصحى ابنه الأديب الطاهر قيقة .

(2) William Marçais et Abderrahmân Guîga, Textes Arabes de Takrouna, II, Glossaire, Tome premier, Paris, 1958

تُعدّ نصوص تكرونة دراسة علمية كاملة لكلّ ما يتعلّق بخصائص اللهجة المحلّية على مستوى التركيب والاشتقاق والمعجم، من خلال النظر في جذور الكلمات واستخدام الأشكال المعجمية وتوضيحها بوساطة أمثلة نحوية وعبارات واقتباسات شعريّة، بحيث يمكن للمرء أن يتحدث في المجمل عن قاموس حقيقي شبه شامل. وهي شهادات سجّلت ما قيل وما عيش وما عبّر عنه المتحدّثون في مجموعة صغيرة جدًا، أقلّ من مائتين وخمسين شخصًا، حيث مثّلت محادثاتهم حالة استثنائية إلى حدّ ما من التحليل المكثّف لمجتمع صغير.

وذكر في مقدّمة بحثه هذا وجود لهجة شبيهة بلهجة تكرونة التونسيّة في الجزائر نواحي جيجل وتلمسان، ولاسيّما عند قبيلة ترارة، وفي شمال المغرب الأقصى عند قبيلة جبالة، معتبرا أنّ الأصناف العديدة من هذه اللهجات المتحدّث بها، ذات الأصول المتنوّعة، تشترك في نبعها الأول، وهو اللغة العربية التي كان يُتحدث بها في بعض جهات الريف المغربي قبل قدوم بني هلال وبني سليم، ويعود أصلها إلى اللهجة التي يتحدث بها سكان المدن العريقة التي كانت مراكز إشعاع للتعريب.

أبرز مارسيه في هذه النصوص اللهجة التي اختصّ بها الساحل التونسي الذي يتميز في نظره بمكانة خاصّة، نظرًا لموقعه الإستراتيجي، والطرق الرابطة فيه بين مدينة القيروان التي

تميزّت بأهميتها الكبيرة، وبين ميناء سوسة والمهدية والمنستير. حيث لاحظ وجود لغة عربية مختلفة لمجموعة الريفيين الذين تعاملوا مع سكّان تلك المدن، وهي عربية ذات طابع خاصّ كونها مزيجًا من لهجتين واحدة حضرية وأخرى بدوية، فبدت قريبة من الحديث الحضريّ، ومختلفة عن الحديث البدوي، من خلال نظام الحركات وقواعد الصرف والنّحو، ممّا جعله يستنتج أنّ حديث الساحل التونسي هو في أصله حديث عربيّ حضريّ قد ألحق به سكّان الأرياف بعض التغيرات.

على المستوى اللساني، نقرأ – مثلاً - فيما يخصّ تكرونة: "يتعلق الأمر بحديث قرويّ من نوع "ساحلي"[(1)] يعتبر باللغة الأمّ، نصوصًا سردية ووصفية، ومحادثات تتخلّلها خطابات صغيرة تختتم أو تقتطع - أحيانًا حوارًا ذا جدل إضماريّ. بما أن الأمر يتعلق بالقول أو السرد، بالوصف، بالتفكير، بالأمر، بالسؤال، بالإجابة، بالذمّ، بالتمنّي، تستعمل اللغة صياغات جمل مختلفة شديد الاختلاف. سعينا إلى عرض لهجة تكرونة في هذه الاستعمالات، ووضع من هنا فيما يهمّ الأسلوبية والتركيب أحاديث عربية في اتصال مع بعض الحقائق المتوفرة بصعوبة: من النادر أن تصل محادثات - لا سيما بين الأطفال

---

(1) صفة (قرويّ) تتعلق بالتصنيف الذي اعتمده مارسيه في تصنيفه للهجات المغاربية، وتمثل صفة (ساحلي)، محدّدًا جغرافياً داخليًا في تونس.

وبين النساء وبين الأزواج في المغرب الكبير - إلى مسامع الأوروبيين. غير أنّ محادثات من هذا النوع تُحقّق مادة لغوية استثنائيّة إلى حد كبير من اللغة العربية الفصحى، التي يميل أيّ مسلم من شمال أفريقيا إلى حصرها مع مُحاوِر أجنبيّ."[1]

من المفردات التي أوردها مارسيه في المسرد المتعلّق بلهجة تكرونة، نذكر بعضها فيما يلي، وقد شمل العرض تحليل المستوى الصوتي والصرفي والدلالي للألفاظ، موليًا الاهتمام للسياق والاستعمال في كلّ مرة:

-أَبَّدْ [2]« ‘àbbàd »، (يظهر تأثير الفصحى على شكل المفردة)، يأبّدْ، تأْبيدْ، تابيدْ (tàbid)، تِيْبيدْ (taibid)، ويعني الفعل الثبات في مكان ما، أو في وضعية ما لوقت طويل (maintenir indéfiniment qq ou qq. Ch dans un lieu, dans une situation), (immobiliser)، وفيه دلالة ما تعنيه كلمة "الأبد" في العربية من الزمان المطلق دون تحديد نهاية. "حبْسْ يُؤبّدْ" يعني "سجن مؤبّد". "لَبَدْ"، "للأبدْ" تعني إلى الأبد (durée indéfinie)، "أبدَنْ" (abadàn)، اقترض من اللغة الفصحى "أبدًا" (jamais)، وتفيد النفي المطلق في الماضي والمستقبل "أبدنْ اولا تصيرْ" (jamais ça ne sera).

(1) Textes Arabes de Takroûna, transcription, traduction annotée, glossaire (1925). P33

(2) المصدر السابق، الجزء الأول، ص 2

-أبر « àbra»[1] (معرّفة: لَبْرا، اللّبْرا (làbra, èllàbra))، الجمع: أبْراتْ « àbràt »، آباري « àbàri »، التصغير: أبِيرَا « a béra »، جمع: أبِيراتْ « àbéràt »، الإبرة الصغيرة تستعمل للحياكة وتكون حادة، (petite aiguille à coudre, droite) والإبرة الكبيرة تُسمّى "مخْيُطْ" أو "مَفْتاح"، والإبرة الضخمة التي تستعمل في حياكة ضفائر الحلفاء تسمّى "مْسَلَّا" « msàlla ». وفي الاستعمال نجد: "مياتْ ابْرا ما يْجُو في المخْيط" (cent aiguilles à coudre ne font pas une aiguille à emballage) (cent faibles ne font pas un fort) ، بمعنى أنّ مائة من الأشياء التي ليست لها قيمة أو الأشخاص الضعفاء لا تعادل شيئًا ثمينًا أو شخصًا قويًا. "كِيفْ لبْرا تِكْسي النّاسْ وتبَاتْ عِرْيانة" (comme l'aiguille qui habille les gens et demeure nue) c t à dire (il rend service à tout le monde et se trouve lui-même sans ressources) ، ويُقال عن شخص يقدّم خدمات للآخرين وهو لا يملك لنفسه أيّ خدمة، أو يهتمّ بالناس ولا يهتمّ بنفسه. "زَحْمَة ما تلْقا وين تُرْشِقْ الإبْرا"، ويعني أنّ مكانًا مزدحمًا ومكتظًا لا يوجد فيه بقعة شاغرة لغرس شيء صغير في حجم الإبرة. "جنْبي يدُقْ فِيَّا كِي لبْرا"، دلالة على الألم الذي يشبه وخز الإبرة. "سيِّبْ لِبْرا تسْمَعْ حِسّْهَا"، ويعني أنّ صوتًا ضئيلاً

(1) المصدر نفسه، ص ص 3- 4

مثل وقع الإبرة على سطح الأرض يترك أثرًا فيُسمَع في الصمت العميق.

أبو « abù »[1] أبويا، أبوكْ، أبوهْ « abùh »، أبوهَا، وفي لهجات أخرى تونسية "أبّوه" « abbùh »، وفي بعض اللهجات البدوية "هابُّوه" « hàbbùh » إضافة "ها" لـ"أبوه" (والهاء هنا تحيل إلى النداء، وتنوب حرف النداء الياء). جمع "أبو": إبَّاتْ، ولا يوجد له مثنى. "اِبَّيْ" تعني أبي. البُو (الأب) و الأُمْ)، "ايتيمْ البُو ماهوشْ ايتيمْ ما ايتِيمْ إلَّا ايتِيمْ الأمْ" (يتيم الأب ليس يتيمًا، وإنما اليتيم يتيم الأمّ). وللفظ "أبي" عدّة معان حسب السياق، مثل: "على بِكْرة أبيهْ" يعني جميعهم دون استثناء (في الفصحى: عن بكرة أبيه). "كلْ حدْ يدفنْ بوهْ كيما يحبْ" (كلّ شخص يدفن أباه كما يريد)، ويعني أن كلّ شخص حرّ في عمله، فيقوم بما يريد فعله وعلى هواه. "كانْ الخُو ينفعْ خُوهْ ما يبكي حدْ على بُوهْ" (إذا كان الأخ يحرص على مصلحة أخيه لما تألّم الشخص لفقدان أبيه)، ويعني أنّ لا أحد يحلّ مكان الأب. "صَنْعَتْ بُوكْ لا يعَايْرُوكْ"، ويعني أنّ الابن يرث مهنة أبيه.

(1) المصدر نفسه، ص 5- 13

5- نصوص عربية من طنجة[1]

يتكوّن الكتاب من مقدمة ومسرد لعينات من اللهجة الخاصة بطنجة، مع ترجمة مشروحة، تبرز خصائص كل مفردة من حيث الاشتقاق والتصريف، ومقارنتها بما يشبهها في النطق أو يخالفها في مناطق أخرى من تونس والجزائر وليبيا. وسعى مارسيه في هذه النصوص إلى إبراز خصائص لهجة طنجة، التي رأى أنها مختلفة ومتميزة عن بقية اللهجات في مناطق المغرب الكبير، من خلال اختيار عينات من اللهجة تختلف عمّا قدّمه سابقوه من أمثال وأشعار. ونذكر فيما يلي بعض المفردات التي أوردها مارسيه في كتابه:

- **الكلمة الأولى** : "أبازين" (abazin)[2] "نوع من الكسكس الخشن" (sorte de couscous très grossier) "وهذا الطبق بالكاد يُعرف في مدينة طنجة، ومن ناحية أخرى هو جزء مهمّ من النظام الغذائي في جبالا.. ويوجد هذا الطبق في جميع أنحاء المنطقة المغاربية، ويُعدّ بأشكال مختلفة". بعد تعريفه لكلمة أبازين بأنها نوع من الكسكس، يضيف مارسيه إنه نوع من أنواع العصيدة في العموم. وأشار إلى أنّ نفس المفردة تُنطق بطريقة

(1) W. Marçais, Textes Arabes de Tanger, Transcription, Traduction annotée, Glossaire; Paris, 1911

(2) المصدر السابق، ص 215

مختلفة "في تونس والجزائر: بازين وبازينة (bàzin, bàzina) وفي ليبيا: بَزين (bazin)".. "وصفاقس: بزين وبزينة "(bezzina, bezin). لم يميّز مارسيه بين الطبقين المختلفين كلّ الاختلاف بين الكسكس والعصيدة في كلّ أنحاء المنطقة المغاربية، ولكنه ركّز على اختلاف النطق وما لاحظه من انزياح القافية في أبازين، كما سمعها من أهل طنجة.

والمفردة الثانية التي أثارت اهتمامه واهتمامنا هي كلمة "أتاي"[1] (àtài « thé ») وتعني "الشاي". يشير مارسيه إلى الصورة الصوتية التي تظهر عليها كلمة "أتاي" حيث "تظهر بشكل متكرر في السياق في شكل أتاي يسبقها حرف اللين أو حركة صوتية" تتمثل في "الألف"، وهو ميل لتجاوز الفجوة بين الكلمة وما يسبقها في الربط بين أداة التعريف "ال" و "تاي"[2]، إذن (اتاي) هي اختصار لـ"التاي"، ففي قولنا "شربنا التاي" (nous avons bu du thé) (shràbnà-iatài) لا نجد في الاستعمال غير كلمة "اتاي" (àtài) دون تعريف بـ"ال"، كما ذكر مارسيه ذلك، حيث إنّ كلمة (اتاي) غير قابلة للتعريف ولا للجمع. وللتعبير على الجمع، يستعمل عدد كؤوس الشاي، مع الحفاظ على كلمة التاي

(1) المصدر نفسه، ص ص 215- 216

(2) في العربية نميّز بين ال الشمسيّة وال القمرية، حيث لا تنطق اللام في ال الشمسية، مثل الشّمس، بينما تنطق في ال القمرية، مثل القمر. وبما أنّ ال الشمسية في هذا المثال "التاي"، فلا تنطق اللام، فتصبح كلمة "اتاي".

مفردة: "تلاتة الكيسان داتاي" « tlàtà-llkisan-dàtài » يعني ثلاثة كؤوس من الشاي (trois verres de thé). بينما في تلمسان، يذكر مارسيه أنّ كلمة (اتاي) تُجمع في صيغة جمع فريدة وهي "اتايات" « atàiàt »، وذلك في معنى عدد كؤوس الشاي. وفي قسطنطينة يُقال "تاي" « tài » مع تعريفه "التاي" « èttài » ، وهو نفس الأمر في تونس.

- بِهَابِهَا « béha béha »[1] وتعني أن تسير في نفس الاتجاه إلى الأمام دون أن تنحدر على اليمين أو اليسار، ودون أن تتوقّف. وتوجد هذه العبارة في لهجة جنوب المغرب، وفي حديث العديد من المناطق الجزائرية، وفي الشمال التونسي تعني معنى آخر، وهو "نهائيًا، حتمًا، بكل تأكيد،" (définitivement).

- جوج « zùz »[2] اثنان (deux)، ويُنطق بالجيم جوج، وبالزاي زُوجْ، المثنى: جوجْتينْ، الجمع: جْوَاجْ، في لهجة الجزائر: جْويجْتينْ في المثنى، وجْواجْ في الجمع، وفي لهجة الأغواط: جِويجاتْ، وفي اللهجة التونسية: زُوزْ (اثنان).

(1) المصدر نفسه، ص 238

(2) المصدر نفسه، ص 254

مختارات من كتابات مارسيه الفكرية والإبداعية

1 ـ في اللغة العربية[1]

"لم تُحفظ أيّ لغة، ولم تُفلح، بالكثير من الحبّ، ولم تحْظَ بالكثير من التحقيقات والمناقشات، كما حُفظت اللغة العربية وحظيت بالاهتمام، لأنه لم يكن هناك تردّد واختيارات مزيّفة، بل تميّزت بالوفرة والازدهار فيما وصلنا منها وما لم يصلنا أيضًا، إذ ثُبت خلال القرون الأولى للهجرة، ومنذ ذلك الحين لم يتغيّر، رغم ما شملته مفردات العربية من عناصر أجنبية في العصور الوسطى، ولا شكّ أنّ استعمال بعض المفردات قد اختلف حسب الزمان ووفقًا للبلدان."

"إنّ الكلمة العربية كالعود، إذا نقرت على أحد أوتاره رنّت لديك كل الأوتار وخفقت، وهي تبعث في نفسك - زيادة عما لها من صدى خاصّ - جميع الأصداء الخفية لكل ما ينتسب إليها من مفردات أو يلتحق بها، ثم تحرك في أعماق النفس من

(1) W. Marçais, La langue arabe, Rapport d'inspection générale publié par l'Enseignement public, revue pédagogique, Paris, Delagrave, n° 12 (décembre 1930, p. 83

وراء حدود المعنى المباشر موكباً من العواطف والصور. وإذا نظرنا إلى العربية من حيث الصناعة، أدركنا في غير عناء أن فيها من سبك الشعر ومادته الكثير من الكنوز والموارد"[1].

- "في العربية، للعبارة من المتانة ما لا يبقى معه شيء يحجب مصدرها عن الناطق بها أو المستمع إليها، وبذلك كان اللفظ في اللغة العربية يذكرك بالأرومة التي اشتُقّ منها، ولعل هذا الشعور العميق بالمصدر يفوق شعورك باللفظ عينه"[2].

- اللغة العربية تمثّل بالنسبة إلينا حالتين أو نوعين من اللغة، مختلفين تمام الاختلاف: لغة أولى أدبيّة تسمّى اللغة العربية المكتوبة، أو الفصحى، أو المنتظمة أو الحرفيّة، وهي اللغة الوحيدة الموحّدة في الماضي وفي الحاضر، وهي لغة الكتب الأدبية والعلمية والمقالات والصحف السياسية، وباختصار كلّ ما هو مكتوب، ولكن بالنسبة إلينا لم تكن لغة متحدّث بها البتّة. ولغة ثانية تتمثل في تعابير منطوقة ولهجات عاميّة متشابهة ومختلفة في نفس الوقت، ولم تُكتب أبدًا، ولكنها كانت لغة المحادثة الوحيدة في كل الأوساط الشعبية منها، والمتعلّمة على حدّ السواء.

لقد قامت اللغة العربية المكتوبة على موارد قديمة، أوّلها

(1) وليام مارسيه، محاضرة في اللغة العربية، عن نشرة الدراسات العربية بالجزائر، مجلة الرسالة – العدد 641، سنة 1945

(2) المصدر نفسه

القرآن، ثمّ الشعر القديم، واعتُمِدت لغة الحضارة الإسلامية، وهي أكثر لغة حُظيت باهتمام أَصحابها وحبّهم لها، فدُرست وحُفِظت بكلّ حبّ، ولم تتغيّر منذ القرون الهجرية الأولى إلى الآن، لقد كانت اللغة العربية – وما زالت ذاكرة الأمة، تختزن تراثها وقيمها.[1]

2 ـ في المعجم العربي[2] :

اتّسع نطاق الثقافة العربية بعد الفتوحات الإسلامية، خلال القرنين الثاني والثالث، الزاخرة بالثقافة الأدبية والبحث العلمي في جميع شؤون الحياة المادية والروحية، وقد قامت على تفسير الحديث الذي أدّى إلى نشأة الفقه، والتأليف في التاريخ والمغازي والسّير، وجمع نفثات الأدب القديم وشرحها واستخراج شواهد منها للغة وقواعد للنحو. ثمّ تكاثرت الترجمات، وبها اتّسعت الثقافة العربية، فأخذت من نفائس علوم الأوائل والأدب الفارسي والحكمة الهندية. هذه هي الجداول المتفرّقة التي تَكوّنَ من التقائها نهر عظيم، شربت الثقافة العربية من مياهه المختلفة، واغتذت به حدائقها الملتفّة.

(1) William Marçais, La Langue Arabe, Rapport d’inspection générale, publié par L’Enseignement public, revue pédagogique, Paris, Delagrave, n° 12 (Décembre 1930)

(2) William Marçais, La lexicographie arabe, Conférence faite en 1940 à Rabat (Institut des Hautes Etudes marocaines), in Articles et conférences, p. 161

والذي أنا بصدده الآن هو إلقاء نظرة على نُبذ من تاريخ فنّ من فنون تلك الثقافة، وهو جمع اللغة، وما يتّضح للباحث من أطواره ومراحله. فعلم اللغة هو دراسة المفردات من حيث صورتها ووضعها، يعني الكلمات التي ينطق بها الناطق، ويرسمها الكاتب، متحرّيًا أداء حروفها ساكنها ومحرّكها، ليفهم غيره معانيَ لها وُضعت، وبها في العقل والحافظة قُرنت.

سعى علماء اللغة إلى جمع نفيس اللغة الفصيحة من مصادرها الأساسية، وهي القرآن والحديث والشعر القديم والأمثال وألسن الأعراب، وتدوين كلّ ما هو أصيل فصيح، وإهمال ما لا يستعمل من الألفاظ. فنشأت معاجم اللغة وهي أمّهات الكتب، مثل تآليف الخليل بن أحمد الفراهيديّ وأبي زيد الأنصاريّ والأصمعيّ والكسائيّ وابن السكّيت والمبرّد. وكانت كتبهم بمثابة الموسوعات من اللغة والشعر والأمثال والأخبار.

وأمّا لسان العرب لابن منظور الأفريقيّ فهو التّبر النّضير العديم النّظير، وهو الجِذْل المُحكّك والعِذْق المُرجّب والرفيق الوثيق لكلّ من درس الشعر العربيّ والحديث النبويّ والأثر الصحابيّ.

ومن جملة العلماء الذين اجتهدوا على جمع اللغة وتأليفها أبو منصور محمّد الأزهريّ الهرويّ صاحب التهذيب، فللرجل خبر عجيب عسى أن يجدر ذكره، فإليكم ما قال في مقدّمة كتابه: "كنت منذ تعاطيت هذا الفنّ في حداثتي إلى أن بلغت السبعين مولَعًا بالبحث عن المعاني والاستقصاء في مأخذها من

مظانّها، وإحكام الكتب التي تأتّى لي سماعها من أهل الثبت والأمانة للأئمّة المفسّرين وأهل العربية المعروفين، فامتُحِنتُ بالإسار سنة عارضت القرامطة الحاجّ بالهبير، فكان النفر الذين وقعتُ من سهمهم عربًا، عامّتهم من هوازِن.... نشؤوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث.... ويتكلّمون بطباعهم البدوية وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يقع في منطقهم لحن ولا خطأ فاحش، فبقيت في إسارهم دهرًا طويلاً .... واستفدت من مخاطباتهم ومحاورة بعضهم بعضًا ألفاظا جمّة ونوادر كثيرة، أوقعت أكثرها في مواقعها من الكتاب، وستراها في مواضعها إذا أتت قراءتك عليها". فأقول سبحان الكريم البارئ إنّ للغرام لجاذبيّة لا تجاذَب، وللولوع غِلبّى لا تُغالَب: رجل طاعن في السنّ ذاق أمرّ الهوان، فما حال له الجريض دون القريض، بل غمّض جفونه على القذى وأحال إلى الجداء والمنفعة ما كان مشقّة وأذى، قال المتنبي: "مصائب قوم عند قوم فوائد"[1].

يتعسّر علينا أن نحدّد بالتدقيق زمن العصر الذي عدل فيه علماء أهل المدر عن سماع سكان الوبر، غير أنه لا يبعد أن تكون في جزيرة العرب قبائل حافظت على فصاحتها الأصلية إلى أواخر القرون الوسطى، سندي في ذلك ما ذكره عُمارة اليمنيّ الحكميّ في النكت العصرية عن بعض مخاليف زبيد، وما جزم به الفيروزآباديّ وياقوت الحمويّ. قال ياقوت في معجم البلدان:

---

(1) المصدر السابق، ص 156- 157

"جبلا عكاد فوق الزرائب من نواحي زبيد وأهلها، باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم، لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة"، وأضاف صاحب تاج العروس: "ولا يُقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال، خوفًا على لسانهم".

هذا من مصادر المعاجم الكبار، السماع من الأعراب ومخالطتهم، هذه المادة التي اقتصر مؤلّفوها على جمعها وضبطها وتفسيرها. فممّا لم يسوّغوا تقييده وتركوه عمدًا كلّ ما يُطلق عليه اسم المولَّد: منه مصطلحات العلوم، ومنه جميع ما مسّت الحاجة إلى الإعراب عنه نطقا وكتابة من أشياء حديثة وأفكار جديدة أنتجها التطوّر الاجتماعيّ، فلُجئ في التعبير عنه إلى توفير المشتقات والتوسع في المدلولات، فمن المنشود والمرجوّ أن يستجلي لنا الباحثون غوامض الألفاظ الأيّوبيّة والأندلسيّة القرطبيّة والحفصيّة والمرينيّة[1].

أتدوين اللغة عمل للعرب فيه سابقة تامة، نهضوا به من تلقاء أنفسهم؟ أم هو مشروع استنزلوا له الإلهام من ثقافة أجنبية، ونسجوا فيه على منوال غيرهم؟ فالأصحّ عندي والأصلح أن لا يُنبَس بإحارة قبل الوقوف على أمرين: **أوّلاً** : من المحقّق أنه لم يُذكر عن الفُرس تدوين للفهْلويّة البتة، وأما اليونانية فلم يأخذ الروم البيزنطيون في جمع مفرداتها وترتيبها إلا

(1) المصدر نفسه، ص 166- 167

في القرن العاشر للمسيح. وأمّا الآراميّون فلم يشرع المارُونُ - أي أحبارهم في تأليف كتب شاملة للألفاظ السّريانيّة إلّا في أثناء القرن الثاني عشر للمسيح فحسب[1].

ثانيًا : ممّا لا يخفى على الخاصّ والعامّ أنّ دواوين اللغة العربية مرتبطة بالصرف والاشتقاق ارتباطًا لا تنفصم عراه إلى حدّ أنّ ترتيبها بأسره مبنيّ عليهما، فلا يتصرّف في أبواب الصحاح والقاموس وفصولهما إلا من أحسن الصرف وأخذه دليلاً، ولا يهتدي في ملتفّ أيْكِهما إلا من شدا شيئًا في الاشتقاق الصغير وانتدبه رائدًا. وإليكم من ذلك مثال غاية في السذاجة: كلمة الميزان لا يصل إلى موضعها من المعاجم إلا الذي يعلم جعل مفعال لما تسمّى به الآلة، ويخبر عمل الكَسْرَة في الواو التي تليها، فاتضح من ذلك أنّ قواميس اللغة صروح لم تُرسَم إلا اعتباراً لخصائص الذي جُعِلت له مثوى، ولم تُشد إلا مراعاة لمميزات الذي هُيِّئت له مأوى.

فممّا أجزم به - غير متردّد ولا متوقّف - أنّ تدوين اللّسان العربيّ مثل وضع القواعد النحوية، واختراع البيان والبديع، شجرة نبتت في أرضها، وبكرمها اغتذت، وفي خصيبها تأثّلت ونمت وأزهرت، فهي إسماعيليّة المغنى والمجنى ... فيجدر بنا أن نراها من ألذّ ثمرات الثقافة العربية المحضة وأمرئها وأثمنها[2].

---

(1) المصدر نفسه ، ص 169

(2) المصدر نفسه، ص 170

3- في الأدب العربي[1] :

نشأ النثر العربي مع الإسلام، ففي كلّ الآداب يُعدّ الأدب اختراعًا متأخرًا نسبيًا، وظهوره يعكس حقيقة الواقع بامتياز، وربما - في رأيي - يُبرز حقائق التاريخ الأدبي. وكانت نشأة النثر بطريقة تلقائية لدى بعض الشعوب عند قلة من الأفراد أو الجماعات، حيث يتطوّر ببطء شديد. ولكنّ الأمر مختلف مع النثر العربي، ففي وقت مبكّر من نهاية القرن الثاني للهجرة والتاسع الميلادي، كان كتّاب النثر يطرقون أكثر المواضيع تنوّعًا مثل أطروحات الجغرافيا التي كانت في الواقع طريق الحكمة ومرايا التميّز، وملحوظات السيرة الذاتية، والمقالات المتنوّعة حول المبادئ الأدبية. وقام النحاة والمعجميون بتدريس أولئك الذين يستعملون اللغة العربية كأداة للتعبير عن الفكر قواعد الكتابة والقراءة الصحيحة لبناء الجمل بشكل صحيح مع حُسن استخدام الكلمات واختيار الألفاظ.

وكان عمل الفقهاء وعلماء الدين مركّزًا على خدمة الدين الإسلاميّ، وما يؤمنون به، وغاية في إرضاء الله.

لقد مثّل الشرع وفقه اللغة والتفسير جوانب قوية في

(1) W. Marçais, « La femme dans les mille et nuits » ; Conférence faite à Paris, Faculté des Lettres, 1946, publiée par la *Revue de la Méditerranée,* 1951, p. 3-17 ; Ibid, pp. 209 - 210

الحضارة العربية الإسلامية، أسهمت في تطور الوعي والفكر، ولكن الجانب الخيالي كان ضعيفًا نسبيًّا، مقارنة بوفرة الخيال في الثقافة الفرنسية، وإذا بحثنا في الأدب العربي عن هذا الجانب الخيالي، وثبت التواصل بين ذهن الغربي والشرقيّ المسلم، فنعتقد أنّ ما يمثّل العالم الخيالي هو ألف ليلة وليلة الذي أمتع دون شكّ العربيّ والغربيّ، حيث جعله علاء الدين وعلي بابا يعيش لحظات ممتعة من شبابه. وبالنسبة إلى الكثيرين منكم -كما بالنسبة إليّ سابقًا- أنا متأكّد أنّ ألف ليلة وليلة يمثل جوهر الأدب العربيّ. هذا الأثر العجيب الذي انتقل فيما بعد إلى عدّة لغات، كان جالاند (Galland) قد أسّس في بداية القرن الثامن عشر نسخة فرنسية كانت ساحرة، وقد حقق الكتاب في ترجمته ثروة لا تصدّق. وأنشأ آخرون نسخًا في جميع لغات أوروبا، كما ظهرت نسخ مقلّدة، وأخرى في شكل ملحقات، وأصبح ألف ليلة وليلة أحد كتب الإنسانيّة.

4- في الشعر والنثر[1]

كان الشعر الجاهلي في جزيرة العرب يُعدّ أدبا كلاسيكياً، وذلك منذ القرن السادس الميلادي، في عصر لم تكن كبريات لغاتنا العصرية قد تجلّت فيه خصائصها بعد. ونعني بالأدب

(1) ويليام مارسيه، محاضرة في اللغة العربية، عن نشرة الدراسات العربية، الجزائر، مجلة الرسالة – العدد 641، سنة 1945

الكلاسيكي مجموعة الآثار الأدبية التي تعبّر في مجملها عن قصد سام بعينه، وعن موقف محدّد يخصّ مشكلات الحياة ومصير الإنسان، وعن ضرب من الشعور والفهم في لغة اعتُنيَ بها جيدًا، لتكون ذات صناعة دقيقة وراقية. وكان أصحاب تلك القصائد القديمة ينطقون أحياناً بالحكم، لكنهم يميلون أكثر إلى العاطفة، فلا يذهبون إلى التفكير المنطقي أو الاستنتاج والتأمّل إلا نادرًا. بل تميل نفوسهم إلى التأثر والانفعال، معتمدين على الصور الخيالية والأمثال، وعلى صيحات الحب أو الغضب التي امتزج فيها اللطف بالقسوة، واقترن العطف بالعنف، وإنما يجري تنسيق الألفاظ فيها طبق نظرية خاصة للجمال الفني، يُعدّ الإيجاز من أهمّ قواعدها. وأسمى غايات الشاعر أن يكون لكل بيت من أبياته من التفوّق في إيجاز العبارة ومتانتها ما يجعل قوله تسير به الركبان، فيصبح كالمثل عند قومه والناطقين بلغته. ومع ذلك فلم تكن تلك القصائد القوية خالية من بعض الغموض؛ إذ لكل لغة سرّها الخاص بها، بفضله لا يخلو شعرها من هذه الميزة والطابع الخاص.

وإن لهذا الاستعداد الشعري العظيم آثاره القوية في توجيه الآداب العربية، فالرأي الغالب عند جميع الناطقين بالضاد، في سائر العصور، أن الأدب شعر قبل كل شيء. لذلك كان مؤرخو الآداب العربية ونقّادها يقتصرون من آثارها على فن الشعر أو يكادون.

ومهما يكن من الأمر، فلا بدّ من الاعتراف بأنه قد بدأ يظهر في القرن الثالث للهجرة نثر عربي غزير المادة ومتنوع الأسلوب، جدير بالرواية والجدال النظري معاً، قادر على تتبعّ الفكرة والالتصاق بها في كل منعرجاتها، وعلى أداء جميع دقائق المعنى. ولم تمض مائة سنة حتى بدأ هذا اللون من النثر المنغّم القائم على انتقاء اللفظ وانسجام عدد نغماته، يزول، وقام مقامه النثر المسجّع. وفي الحقيقة لم يكن هذا النوع من النثر المسجوع زائراً جديداً في اللغة العربية، بل كان عندها أسلوباً قديماً مألوفاً يرجع عهدها به إلى العصر الذي كان النثر فيه خطابياً أو شفاهياً على أقل تقدير، إذ كان موجهاً في الحقيقة إلى السمع، لا إلى النظر.

وإذا نظرنا إلى العربية من حيث الصناعة، أدركنا أنها تزخر بكنوز السبك والشعر، فلقد كان نشوء هذه اللغة وتطورها مبنيّاً في أعظم قسط من مفرداتها على التداول بين المقاطع المقصورة والمقاطع الممدودة. وإذن يجوز لنا القول بأن اللغة العربية ذات تقاطيع شعرية في ذاتها، فلا غرابة إذن أن يكون واضع علم النحو هو الذي ضبط تلك المقاطع. أما الأوزان والتفاعيل الشعرية، فإنها مؤلفة من مجموعة متأثرة بالصيغ الصرفية.

إنّ أغلب الأدب في بدايته شعر، فالجاحظ قد روى معظم كلامه الذي استشهد به في كتاب (البيان والتبيين) عن الشعراء، أو عن إخوانهم الخطباء.

وعلى ذلك، فقد أحرز النثر في القرون الثلاثة الأولى من الإسلام مكانه اللائق به، ووافق ظهوره - مثلما هو الشأن عند سائر الأمم - ما حصل من تقدّم في التفكير وطرائق البحث في المواضيع العلمية. وفي الواقع كان أهل صناعة التفكير المنطقي الاستنتاجي والفقهاء والمشرعون على اختلاف مذاهبهم، هم الذين سبقوا غيرهم من الكتاب بتطور النثر على أيديهم.

ومع حلول القرن الرابع للهجرة، أصبح هذا اللون من النثر المسجوع هو الغالب، يُستعمل في مواضيع شتى من الأدب، بل هو يمتدّ إلى ما وراء المواضيع، فيصبح متصرفاً في كامل الآداب النثرية أياً كان لونها، ومهما كان غرضها، سواء أكانت من آداب الخيال والقريحة، أم من آداب التراسل، أو من كتب الأخلاق، أو من آداب الدواوين، أو في المواضيع التاريخية.

ولعل السبب في هذه الغلبة القاهرة يعود إلى ما كان مشهوراً في سائر الأوساط الأدبية من تفوّق الشعر على النثر. وكان نثر ابن قتيبة - وقد ظهر منبسطاً منسجم المفردات مرسلاً- يُنظر إليه عند المولعين بفن الشعر كما يُنظر إلى فتاة الأسطورة الفرنسية (سندريون) على أنها فقيرة ومنبوذة رغم جمالها وذكائها. فقد بدا للمغرمين بالشعر أن هذا النثر المنبسط المرسل في حاجة إلى زينة وحلي، وهكذا جعلوه نثراً مسجعاً، ومع ذلك، فإنه يجدر بنا ألا نشدّد الحكم على النثر المسجوع، فهو الذي أمدّ العربية بعدد من جواهرها الأدبية، وهو الذي أكسبها آثاراً فيها من

جودة الصناعة ودقة النقش ما يجعلها مثالاً تطبيقياً لقاعدة الفن المطلق الخالص، أو ما يُعرف عندهم بالفن للفن. . . ولا يمكن مع ذلك نكران العراقيل الخطيرة التي انجّرت من هذا النثر للعبارة الصحيحة الكاملة الموفية بحق المعنى بالقياس للنثر وجوهره. ولا يمكن أن نغفل عما كان لهذا النثر من سيّئ الأثر على الأسلوب، فقد أنهكه الاستهلاك والتكرار، وحَمَل الكّتاب على الاقتصار من أساليب الكتابة على الجمل القصيرة من شتات السجع، فأفضى بعدد منهم إلى التضحية بالمعاني واللب في سبيل العناية بالشكل والأسلوب.

ولكن هذا النوع من النثر قد انقضى اليوم عصره وزال سلطانه. فلقد عادت الحرية المطلقة إلى النثر بفضل نهضة الآداب العربية التي بدأت منذ ثلاثة أرباع قرن تقريباً، وفي هذا الباب ذكر بعضهم مراراً عديدة ما للتأثيرات الأجنبية من فضل على هذه النهضة، سواء من حيث الأسلوب وفن التعبير، أو من حيث تجديد اللون الأدبي في ذاته، واختيار المواضيع، وهي عوامل لا يمكن نكرانها، ولكنها لم تكن لتؤثر لو لم تصادف رغبة دفينة في الانبعاث، وشوقاً إلى إحياء تراث عظيم قد وقف سيره: تراث القرنين الثاني والثالث من الهجرة. ذلك أن الشعوب لا تقبل من التأثيرات والعوامل في باب العبقرية إلا ما كان ملائماً لعقليتها مسايراً لما لها من حركة وتوثّب. وباختصار لا يقتبس الناس من غيرهم، ولا الشعوب من بعضها، إلا ما كان حيّاً في قرارة أنفسهم متوثباً للوجود.

وها هو ذا اليوم النثر العربي قد تهذّبت حواشيه، واتضحت آياته، وتجدَّدَ على أيدي الجيلين الأخيرين من الكتّاب، وبفضل ما بذله هؤلاء من جهود متواصلة، وما صبروا عليه من جد وعمل، أصبح هذا النثر أهلاً لأن يكون أداة تعبير لحضارة عصرية، وبلغ هذا المستوى من الرقي الذي تؤلّف به الآثار الفنية الخالدة. وإنما نعني بالآثار الفنية الخالدة التي لها من قوة السبك ومن الامتلاء بالحقائق البشرية ما لا تنال منه الترجمة إلى اللغات الأجنبية أو تذهب به. وإني أؤمّل بكل قوة أن يأتي اليوم الذي يوجد فيه تصنيف لمؤلف عربي من المعاصرين، يُنقَل إلى اللغات الأوربية، فيقيم لأبناء الغرب الدليل على أن أبناء عدنان وقحطان قادرون مرة أخرى على تنمية كنز الفكر البشري[1].

5 ـ في أصول النثر العربي[2]

"ليس ثمة غرابة في أن ينشأ الأدب العربي – وهذا ما ينطبق على آداب الشعوب الأخرى- في مرحلة متأخرة. ينبغي أن نرى في هذه النشأة دلالة مهمّة، لعلها الأهمّ من بين الدلالات

(1) ويليام مارسيه، محاضرة في اللغة العربية، (ترجمة الثريا بتصرف) عن نشرة الدراسات العربية، الجزائر، مجلة الرسالة – العدد 641، سنة 1945

(2) «Les origines de la Prose Littéraire Arabe», Leçon d’ouverture du cours de « Langue et littérature arabes » professé au Collège de France, publiée par la Revue africaine, t. LXVIII, 1927 ; in « Articles et Conférences », 1961 ; pp.49-50

الأخرى، مع ندرة الشعوب التي أبدعت بصفة تلقائيّة أدبًا نثريًّا، بل بدا لنا أنّ هناك من الشعوب من لم تتمكّن من الوصول إلى إبداع نثر خاص بها، أو لم يخطر لها على بال أن تحاول ذلك، أمّا الشعوب التي أمكنها ذلك فقد قضت وقتًا طويلاً لإنجاز خطوات مهمّة من أجل الوصول إلى هذه الغاية. في سائر الحضارات ولدى كلّ المجتمعات التقليدية سبق الشعر النثر، ويكفي - للتدليل على ذلك - أن نستحضر مثال الإغريق الذين بلغ لديهم النثر أرقى درجات اكتماله.

إنّ نشأة النثر في أيّ حضارة لا تتطلّب فقط – وهذا من بداهة الأمور- أن تنتشر الآليات المادية لضبط ما يرغب الإنسان في التعبير عنه بصفة محسوسة، ألا وهي الكتابة، وإنّما تستوجب بالخصوص أن يصل الشعب المحتضن لهذه الحضارة إلى مرحلة من التطوّر الفكري الذي يتطلّب من الأفراد أن يؤسّسوا بينهم علاقات اجتماعيّة معقّدة ومتعدّدة المسالك. ينشأ النثر حينما تشعر مجموعة بشريّة (أمّة) أنّها في حاجة إلى عرض الأفكار، وبلورة الحجج العقليّة والمنطقيّة للدفاع عنها، والإقناع بصحّتها ومناقشتها. هكذا كان شأن العرب، كان لا بدّ لهم في مرحلة من تطوّرهم الفكري والثقافي أن يتحرّروا من الخطاب الجميل الموزون والمقفّى، وسلطة الإيقاع، لبلورة خطاب جديد منثور يعقلون به وجودهم، معلنين بذلك تفضيلهم ملكة الذكاء والعقل على ملكة الذوق والحسّ."

مختارات ممّا كُتب عن مارسيه

لقد اتفق معاصرو مارسيه على تميّزه في تخصّصه العلمي، وصدقه وإخلاصه في عمله، وتميّز منهجه في دراسة اللغة العربية، وخاصة دراسة لهجات المغرب العربي، مشيدين بميله للتدقيق والحفر في ذاكرة تاريخ اللغة وأصحابها، حتى غدت كتاباته مرجعًا أساسيًا في دراسة اللهجات، ومنطلقًا نظريًا للبحث في هذه المسألة. وقد أشاد أصحاب الاختصاص بمدى إتقانه للغة العربية، وشغفه بها، ممّا جعله باحثًا مختصًا في تاريخها وآدابها ومعجمها، فلم تكن كتاباته مجرّد بحوث لسانية ونقدية في اللغة العربية، بل كانت عملاً إتنوغرافيًا اهتمّ فيه بكلّ ما يحيط باللغة العربية، بدءًا من أهلها وثقافتهم وتاريخهم ونمط عيشهم، وصولاً إلى استعمال اللغة العربية الفصحى، وما ينبثق عنها من لهجات كانت مغرية بالنسبة إليه للبحث والدراسة.

أرلات روث- جيثنير (Arlette Roth-Geuthner): مديرة دراسات في المركز الوطني الفرنسي للبحوث العلميّة (CNRS)

"لقد برهن ويليام مارسيه منذ وقت مبكّر على تميّزه ونبوغه العلمي، كونه أستاذًا وباحثًا في اللغة العربيّة الفصحى واللهجات المنبثقة عنها، وقد شهد له الجميع في أوساط المستعربين

[الفرنسيين على وجه الخصوص] بإتقانه المذهل في ذات الوقت للّغة العربيّة الفصحى وللهجاتها. فعيشه لمدّة سنوات بين شعوب عربيّة، قد خلق ألفة بينه وبينها، ما جعله يعرف معرفة عميقة شتّى إبداعاتها الثقافيّة، وأنماط عيشها........ لا يمكنني أن ألخّص تجربة ويليام مارسيه البحثيّة في اللغة العربيّة، بعض لهجاتها، دون الإشارة إلى أنّ مؤلّفاته وبحوثه هي أفضل ما يساعد الطلبة الفرنسيين من ذوي الأصول العربيّة المغاربيّة الذين نشؤوا في فرنسا، منشغلين بالبحث عن هويّتهم، وبمعرفة ثقافة أهلهم، ولغتهم الأمّ. فلا شكّ أنّ ما قدّمه مارسيه من أعمال تطبيقية قد ساعدهم في ذلك، فقد مثّلت نصوصه مادة تطبيقية ثرية لكلّ من أراد معرفة اللغة المتحدَّث بها في بعض مناطق المغرب الكبير، مثل تكرونة والحامة في تونس، وتلمسان في الجزائر، وطنجة في المغرب، والتي تُعدّ شهادات حية على ما قيل وما عيش، كما يقول مارسيه. وتُعدّ نصوصه من حيث جودتها اللغوية وخصوصية أسلوبها كلاسيكية بالمعنى الأكاديمي للمصطلح.

لقد فطن ويليام مارسيه - وهو السبّاق في ذلك، والمهتمّ باللسانيات الاجتماعية، وبالأنثروبولوجيا - إلى أهميّة دراسة اللهجات التي تعكس ثقافة أصحابها، ونمط عيشهم، والتي تخلق تنوّعًا داخل اللغة الواحدة، كثيرًا ما يثري معجم التواصل، ويمثل الرصيد اللغوي الأكثر تطبيقًا في التواصل اليومي، مقارنة باللغة الرسمية، وهي الفصحى. ولا تخلو

اللهجات من دقة علمية وتصنيف فنولوجي، لا يكون يسيراً إلا على أصحاب الاختصاص، فإن أهملت الدراسات الأكاديمية في الجامعات العربية مسألة اللهجات، التي هي على غاية من الأهمية، فإنّ الجامعات الأوروبية والأمريكية قد اهتمّت بتدريسها، وجعلها علمًا من العلوم المختصّة، وذلك يقينًا بما تمثله اللهجات من تنوّع وتميّز شديد الارتباط بخصوصيات سكان كلّ منطقة وعاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم، التي كثيراً ما تؤثر البيئة والمحيط الجغرافي، في طريقة نطقهم للحروف واستعمالهم للكلمات، وفي هذا المبحث اللساني تجتمع الأنثروبولوجيا مع اللسانيات الاجتماعية لدراسة اللهجات وتحليلها، ليكون العمل لسانيًا إثنولوجيًّا واجتماعيًّا في نفس الوقت.

ما قدمه ويليام مارسيه في دراسة حديث تكرونة، وفي دراسته كذلك لحديث حامة قابس بالجنوب التونسي، بالتعاون مع جلولي فارس، يشكّل نموذجًا لمخطّط أو رسم تخطيطي وصفيّ، يتمثل في نظام فنولوجي يستطيع الجمع بين تحليل صرفيّ-تركيبيّ للنصوص ومسرد المصطلحات. ونفس التجربة يمكن خوضها من وجهة نظر تاريخية، من خلال أعمال أخرى لمارسيه، تعلّقت باللهجات في تلمسان وفاس وطنجة وغيرها من مناطق المغرب العربي.

تميّزت تجربة مارسيه اللسانية بالخصوصية والأصالة في أعماله المتعلقة باللهجات، من خلال دقتها وصرامة منهجها

وارتباطها الراسخ بالواقع المعيش، وهو ما جعلها لافتة للانتباه، وهو ما أكّده زملاؤه الذين اتفقوا على ميله للشفويّ الواقعي وعفويته ومعارضته للنسقيّة المتسرّعة والمستنزفة. ولكن - بالنسبة إليه - رغم ذلك، يبدو كلّ شيء في مكانه، حتى لا يكون التنظير ضيّقًا، وتكون النصوص- مع التنصيص على النصوص التي تمثل الشغل التطبيقي- حاضرة من أجل تنقّل الكلام في تعقيده. وقد كانت مبادئ صياغة النصوص من خلال مخطّط المحتوى وطرق تجميعها وصناعتها واضحة ومختصرة، ابتداء من تلمسان، ثم تغيّرت قليلاً، فقد قدّمها مارسيه على أنها نماذج أو "وثائق شواهد" لتشهد على حياة الكلام المهدّد بالموت، فالتدوين يحمي الشفويّ من الانقراض. وقد مثلت نصوص مارسيه نماذج (modèles) من وجهة نظر لسانية، وهي في نفس الوقت إثنولوجية واجتماعية". [1]

ألفراد مرلان (Alfred Merlin) : (سكرتير دائم في الأكاديميّة الفرنسيّة للآداب والفنون)

"لم تكن الحظوة والوجاهة اللّتان كان يتمتّع بهما ويليام مارسيه لدى أهل العلم من العرب أقلّ ممّا هما عليه في

(1) Arlette Roth-Geuthner, « Un linguiste arabisant émérite », in *Deux savants passionnés du Maghreb,* (textes éunis par Michèle Junqua et Odile Kerouani avec la collaboration de Eveline Cortet), Hommage à William et Georges Marçais, Institut du Monde Arabe, Bibliothèque UNESCO, 2001, pp31-32, p.39

الأوساط الأكاديميّة الفرنسيّة. فعندما كانت تُتاح له الفرصة للالتقاء بعلماء المسلمين، كان يحلو له أن يتبادل معهم أحاديث شيّقة باللغة العربيّة. كان هؤلاء العلماء الوجهاء - الذين بدورهم يحظون بالاحترام والتقدير لثقة الناس في نزاهتهم ورفعتهم الأخلاقيّة ومعرفتهم الدينيّة - ينصتون إليه بإعجاب، وهو يحدّثهم بلغتهم، ويثير فيهم مشاعر الفخر والاعتزاز. يُحكى أنّ أحدهم قد ألهمه ليلا حديث أجراه مع مارسيه في النهار، ليؤلّف قصيدة شعريّة في مائة بيت قرّضه فيها، ومدحه بشتّى الأساليب البلاغيّة والصور التعبيريّة، ومن الغد، عندما نهض مارسيه صباحًا من نومه، وجد ورقة كُتبت فيها هذه القصيدة، وضعها صاحبها في فردة حذائه أمام باب غرفته في الفندق.

هذه اللفتة النبيلة من الشاعر العربي المسلم التي أسعدت مارسيه، تدلّ على المتعة التي حصلت له كما حصلت لغيره من أبناء جلدته الذين التقوا به يومها، وتحدّثوا معه.

هناك قصّة أخرى تعبّر عن مدى الاحترام الذي تكنّه النخبة المسلمة لويليام مارسيه، وعن التبجيل الذي يحظى به لديها، رواها لي شاهد عيان على أحداثها.. في يوم من الأيّام، وبينما كان ثلّة من العلماء الفرنسيين الذين يحظون بسمعة جيّدة في الأوساط الاستشراقيّة، من بينهم مارسيه، ينتظرون على باب سلطان المغرب للدخول عليه في موعد رُتّب لهم مسبقًا، وصل مدير التشريفات [المغربي الذي كان أحد طلبته على ما يبدو] إلى

المكان قبل سيّده السلطان، وما إن لمح مارسيه بين المنتظرين حتّى أسرع نحوه، وقبّل يده. وحتّى يبرّر هذه القبلة التي تعبّر عن الاحترام الكبير الذي يكنّه له، والتي كان يمكن أن تُعدّ في غير محلّها، بادر الحاضرين قائلاً: "لا ينبغي أن تتفاجؤوا بما قمتُ به، الفضل يعود إليه في كلّ ما أنا عليه الآن [من نعمة]، وكلّ المعارف التي اكتسبتُها"[1].

كانار (M . Canard) : (باحث مختصّ في اللغة والآداب العربيّة)

"لا تظنّنّ أنّ المؤلّفات العديدة لمارسيه حول اللهجات العربيّة في شمال أفريقيا تدلّ على أنّه سخّر جهوده العلميّة فقط إلى علم اللهجات العربي، فقد انشغل في بحوثه بالحديث، وشغف كذلك بتاريخ اللّغة العربيّة وآدابها القديمة، ومؤلّفاته في هذا المجال لا تقلّ حجمًا وقيمة عمّا ألّفه ونشره في موضوع اللهجات.

فملحوظاته حول كتاب البخلاء للجاحظ سنة 1925، وحول كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي سنة 1928، ما هي إلّا أمثلة تدلّ على براعته النقديّة، ومدى تضلّعه في اللغة العربيّة، ووصوله إلى مستوى راق في فهمها قلّما وصل إليه أوروبيون من المختصّين فيها وفي آدابها. لا أحد مثله كان أكثر

(1) Alfred Merlin, «Notice sur la vie et les travaux de William Marçais », in William Marçais : *Articles et conférences* (Avant propos de Georges Marçais), Paris, Librairie D’Amérique et d’Orient-Adrien-Maisonneuve, 1961, p18

ألفة مع الأسلوب المتميّز لناثر عظيم، ألا وهو الجاحظ، ولكنّه لم يقتصر عليه وحده، فكان ملمًّا بالآثار والمدوّنات الكبرى للنثر العربي القديم يعرفها حقّ المعرفة، ومؤلَّفه الذي يحمل عنوان "أصول النثر الأدبي العربي" الذي يطرق فيه إشكاليّة عويصة في تاريخ الأدب العربي لخير شاهد على ما نقول. إنّ النثر باعتباره يترجم عمّا وصلت إليه حضارة ما من تطوّر ورُقيّ، هو الذي جذبه إليه أكثر ممّا جذبه الشعر، ولكنّه كان يعرف الشعر العربي ويتذوّقه، سواء كان شعر العرب ما قبل الإسلام أو بعد ظهوره، فكان لا يفوّت فرصة لترديد بعض الأبيات الشعريّة ليشرح معنى مفردة أو تعبير. وكان هاجسه المعرفي - بالإضافة إلى ما تطرحه اللغة العربيّة من إشكالات، وما تثيره الحضارة العربيّة الإسلاميّة من قضايا - يتمثّل في البحث عن أصل الظواهر، والعثور لها عن جذور، ما جعله بالضرورة يخوض في قضايا ذات صبغة تاريخيّة. ولثقافته الواسعة، ومعاشرته لمؤلّفات الإخباريين العرب، استطاع أن يصل إلى نتائج محمودة تكشف عن أصالة فكره. هكذا – مثلاً- بينّ في بحث له بعنوان (الظاهرة الإسلاميّة والحياة الحضريّة)، هو عبارة عن محاضرة قدّمها سنة 1928 في الأكاديميّة الفرنسيّة للآداب والفنون التي اُنتخب عضواً فيها، سنة 1927، أنّ تطوّر الإسلام مرتبط ارتباطًا شديداً بالعمران الحضري، ولم يكن له ليحدث لولا نشأة المدن - التي وحدها، بسائر مكوّناتها الحضريّة - يمكنها أن توفّر فضاءات تسهّل

للمؤمن ممارسة طقوسه وشعائره الدينيّة. وفي نفس المسار، بيّن في بحثه "كيف وقع تعريب شمال أفريقيا؟" الذي أنجزه سنة 1938، الدور الذي لعبته الحاميات العربيّة [العسكريّة] وكذلك موظّفو الدولة وسائر العناصر البشريّة المدنيّة التي ترافق هذه الحاميات في المدن والقرى، وخاصة القيروان، في نشر اللغة العربيّة وإشعاعها، ولم يكن ذلك ممكنًا لو لم تكن اللغة العربيّة لغة ثقافة وحضارة، مقارنة بمنزلة اللغة اللاتينية، التي بدأت في الأفول، ولم تعد كما كانت عليه في شمال أفريقيا"[1].

هنري ترّاس (Henri Terrasse) : (باحث مختصّ في اللغة والآداب العربيّة)

"وتمامًا مثلما كان في مدينته ران (Rennes) في فرنسا، لا يستطيع أن يقطع صلته بريفها، كان ويليام مارسيه - وهو يقيم بمدينة تلمسان - كثيرًا ما يتردّد على أريافها، يجمع في غالب الأحيان بين الصيد والبحث اللغوي في اللهجات، ومن ثمّة عقد الصلة مع كلّ القبائل التي كانت تقيم في محيط المدينة. كان لا يكّل ولا يملّ من السير على قدميه في محيط تلمسان، ويذهب أبعد من ذلك إلى الولوج في الجبال التي تطوّقها، يحتكّ بالمزارعين، ويعيش حياة الفلّاحين، وقد سحرته الطبيعة الخلّابة، وراق له

(1) M. Canard, « William Marçais », in *William Marçais* : *Articles et conférences* (Avant propos de Georges Marçais), Paris, Librairie D'Amérique et d'Orient-Adrien-Maiso, nneuve, 1961 pp.23-24

نمط عيشهم الخشن، تحدوه عزيمة فيّاضة، ويسكنه شغف لا حدود له، ليأخذ قلمه ويسجّل - بعد أن يكون وضع بندقيّة صيده جانبًا - كلّ ما يلاحظه، وما يتناهى إلى سمعه من أحاديثهم. هنالك لفتت انتباهه لهجة قبيلة أولاد إبراهيم الرحّل في التلال الوهرانيّة [نسبة إلى مدينة وهران]، وهي لهجة عربيّة، كانت مختلفة اختلافًا بيّنًا عن لهجة السكّان الحضر لتلمسان.

.... ولكن خلف اللغة العربيّة الفصحى أو اللّهجات المنبثقة عنها ما كان يبحث عنه ويليام مارسيه بشغف وحماسة، هو الإنسان، إنّ مؤّلفاته: نصوصه وشروحه تمثّل منجمًا نفيسًا من الملحوظات العلميّة اللغويّة، بل من الدراسات الإثنوغرافيّة. فمن خلال اللهجة، يبرز مارسيه المتكلّم بها بعاداته وتقاليده وقيمه وذوقه الفنّي والجمالي، كما يبرز انشغالاته، ما يسعده وما يشقيه. وما وراء الإنسان المتكلّم الحالي يعمل مارسيه على إعادة ترميم العوامل التاريخيّة التي أنتجته، الماضي كلّه الذي يجرّه معه ومازال يحمله على عاتقه.... وهكذا من خلال اللّسانيات والإثنوغرافيا والتاريخ، كان يرغب في العثور على الإنسان كاملاً في تركيبته النفسيّة، وفي القيم التي يحملها ويؤمن بها. كان همّه أن يكون واضح التفكير. فإذا كان يعبّر عن أفكاره في أسلوب قاطع يثير الإعجاب في دقّته، ورغبته في رصد الفروق البسيطة بين أفكار الكائنات المحيطة به، وأهوائها وانشغالاتها، فإنّ مسحة التشاؤم التي تبدو أحيانًا على بعضهم

من أحكامه تارة دون مبالغة، وطوراً في نبرة ساخرة متبرّمة، فإنّ هذا الأسلوب لا يمكّنه من إخفاء الحيرة التي تطبق عليه، وتلهم فضوله المعرفيّ، كما لا يمكنه أن يخفي كذلك حبّه اللامتناهي والعميق للآخرين. فهذا الرجل المختصّ في اللسانيات العربيّة هو في جوهره فيلسوف، ومصدر للأخلاق الفاضلة"[1].

شارل بيلا (Charles Pellat)

"لقد كشف كتاب البخلاء -كما يقول ويليام مارسيه – عن شغف مؤلّفه بالملاحظة، وولعه بالجزئيات الدقيقة والنمطيّة، وميله -وهذا الأهمّ- إلى التحليل النفسي للشخصيات وطبائعها... وخلاصة الأمر، فمن هذا الكتاب يمكن أن يُولد أدب واقعي مهمّ [بالمفهوم الحديث للكلمة]" متسائلاً: كيف، ولماذا تاه هذا المصدر المثير للالتباس، ولكنه المنعش والمتدفّق بالحياة، خلال القرون التي تلت كتابته، في مستنقع المقامة التقليديّة الباهتة التي تبعث على الضجر؟". لا يمكنني الإجابة، ولكنّ هذا الموضوع جدير بأن نقترحه للبحث على مؤرّخي الأدب العربي في المستقبل"[2].

---

(1) Henri Terrasse, « William Marçais », in *William Marçais : Articles et conférences* (Avant propos de Georges Marçais), Paris, Librairie D'Amérique et d'Orient-Adrien-Maiso, nneuve, 1961 p p29-30, p34

(2) Charles Pellat « Introduction : *Le Livre des Avares*, Traduction et notes par Charles Pellat, Beyrouth, commission internationale pour la traduction des chefs-d'œuvres- Paris, Maisonneuve, 195 pp 8-9

ثبت بيبليوغرافي مختصر بأهمّ أعمال مارسيه

- Des parents et alliés successibles en droit musulman, thèse de droit (1898).
- Le dialecte arabe parlé à Tlemcen, grammaire, texte et glossaire (1902).
- Tâqrib de Nawawî, traduction (1902).
- Les monuments arabes de Tlemcen , avec G. Marçais (1903).
- Les traditions islamiques de Boukhâri, traduction (1903-1908).
- Catalogue du Musée arabe de Tlemcen (1906).
- Le dialecte arabe des Ulâd Brahîm de Saîda (département d'Oran). Extrait des Mémoires de la Société linguistique de Paris, tomes 14-15 (1908).
- Traduction du Précis de linguistique sémitique de Brockelmann (1910)
- Textes arabes de Tanger, transcription, traduction annotée, glossaire (1911).
- Textes arabes de Takroûna, transcription, traduction annotée, glossaire, (1925) ; W. M. (avec Abderrahmân Guîga); Glossaire contribution à l'étude du vocabulaire arabe, Tome premier, Paris (1958).
- Trois Textes Arabes D'EL-Hamma de Gabès, (avec Jellouli Farès) , J. Dupuis, Journal Asiatique , 1931
- Articles et conférences, Publications de l'Institut d'Etudes Orientales, Faculté des lettres d'Alger, Librairie d'Amérique et d'orient, Paris, 1961

مقالات

Articles:

« Comment l'Afrique du nord a été arabisée », Conférence faite à l'Université de Londres (School of Oriental and African Studies) le 26 Janvier 1939, publiée par les Annales de l'Institut d'études orientales de la Faculté des Lettres de l'Université d'Alger, IV, 1939

« L'Islamisme et la vie urbaine », dans « Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres », Paris,

« La langue arabe», Rapport d'inspection générale publié par l'Enseignement public, revue pédagogique, Paris, Delagrave, n° 12 (décembre,) , 1930

La lexicographie arabe, Conférence faite en 1940 à Rabat (Institut des Hautes Etudes marocaines), in Articles et conférences

« Les origines de la Prose Littéraire Arabe », Leçon d'ouverture du cours de « Langue et littérature arabes » professé au Collège de France, publiée par la Revue africaine, t. LXVIII, 1927

« La femme dans les mille et nuits » in *Ibid*,

المواقع الشبكية التي تخصّ ويليام مارسيه

https://www. Notice sur la vie et les travaux de M. William Marçais, membre doc› crai_0065-0536_1957_num_101_4_10817

https://www.cairn.info›histoire-de-l-algerie-a-la-periode-coloniale--9782...

www.cerclealgerianiste.fr›littératures › 407-in-memoriam-william-marçais

https://data.bnf.fr › william_marçais

https://www.jstor.org › stable

https://en.wikipedia.org › wiki › William_Marçais

https://www.bibliorare.com › coin_du_bibliophile_bis

tabbourt.pagesperso-orange.fr › maghreb › Marcais william

https://journals.openedition.org › ema

https://www.academia.edu › Le_dialecte_arabe_parle_a_Tlemcen_1902_-_...

https://glottolog.org › resource › reference

المراجع المعتمدة في هذا الكتاب

- Barthélémy Adrien, William Marçais. — Langue arabe Annuaires de l'École pratique des hautes études XXI Année 1924
- Canard M., « William Marçais », in *William Marçais* : *Articles et conférences* (Avant propos de Georges Marçais), Paris, Librairie D'Amérique et d'Orient-Adrien-Maiso, nneuve, 1961
- Caplat Guy " MARÇAIS (*William*, Ambroise) " in P*ublications de l'Institut national de recherche pédagogique* Année 1997 Fait partie d'un numéro thématique : L'Inspection générale de l'Instruction publique au XX[e] siècle. Dictionnaire biographique des inspecteurs généraux et des inspecteurs de l'Académie de Paris, 1914-1939
- Cohen Marcel, Pour une sociologie du langage. Paris, Albin Michel, s. d.; vol 1. n-8° 1956
- De Saussure F., Cours de linguistique générale, Paris, Payot, 1975.
- Dussaud Réné, « Georges Marçais. — *Tlemcen* (Les Villes d'art célèbres) » in *Syria*. Archéologie, Art et histoire Année 1952
- Gilbert Jacqueton, « William Marçais et Georges Marçais. *Les Monuments arabes de Tlemcen » (Service des monuments historiques de l'Algérie)* , Bibliothèque de l'École des chartes Année 1904
- Marçais W. et M. Cohen, Précis de linguistique sémitique, traduit de l'allemand, Paris, Librairie Paul Geuthner, 1910
- Massignon Louis "Maurice Gaudefroy-Demombynes (1862-1957) " in *Annuaires de l'École pratique des hautes études* Année 1957
- Merlin Alfred, « Notice sur la vie et les travaux de William Marçais », in William Marçais : *Articles et conférences* (Avant propos de Georges Marçais), Paris, Librairie D'Amérique et d'Orient-Adrien-Maisonneuve, 1961
- Miquel André, *Sept contes de Mille et Une Nuit (Ou il n'ya pas des Contes innocents),* Paris, Sindbad, 1981
- Robert Louis, "Discours du Président, séance publique annuelle" in *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* Année 1956
- Roth-Geuthner Arlette, « Un linguiste arabisant émérite », in

Michèle Junqua et Odile Kerouani avec la collaboration de Eveline Cortet, Deux savants passionnés du Maghreb, Hommage à William et Georges Marçais, Institut du Monde Arabe, Bibliothèque UNESCO

- Pellat Charles, « *Le Livre des Avares*, Traduction et notes par Charles Pellat, Beyrouth, commission internationale pour la traduction des chefs-d'œuvres- Paris, Maisonneuve, 1951
- Perrin, Charles-Edmond, « Éloge funèbre de M. William Marçais, membre ordinaire » in *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* Année 1956
- Terrasse Henri, « William Marçais », in *William Marçais* : *Articles et conférences* (Avant propos de Georges Marçais), Paris, Librairie D'Amérique et d'Orient-Adrien-Maiso, nneuve, 1961

ويليام مارسيه (1874 - 1956)
WILLIAM MARÇAIS

مستعرب فرنسي اهتمّ بالحضارة العربية الإسلاميّة وباللغة العربيّة الفصحى ومشتقّاتها من اللهجات. درس في معهد اللغات الشرقية في باريس. وبعد تخرّجه عُيِّن مديرا في مدرسة تلمسان وأستاذا فيها، وفي مدرسة الجزائر العاصمة، وفي المعهد العالي لتعليم اللغة العربيّة وآدابها في تونس. ثم عاد إلى فرنسا أستاذا في المعهد التطبيقي للدراسات العليا ومديرا للدراسات العربية والإسلاميّة فيه. وأنهى مسيرته العلمية في معهد فرنسا العريق. من أهمّ مؤلفاته: "نصوص عربية من طنجة"، "نصوص عربية من تكرونة"، "ثلاثة نصوص عربية من حامة قابس"، "مقالات ومحاضرات".

فاطمة البكوش

د. فاطمة البكوش أستاذة بقسم اللغة العربيّة بكلّية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة – تونس. متحصّلة على الدكتوراه في اللسانيات العربيّة النظريّة والتطبيقيّة من نفس الكلّية بملاحظة مشرّف جدّا سنة (2011). عضو في جمعية اللسانيات بتونس، وفي مخابر بحث تونسيّة وعربيّة ودوليّة في اختصاص اللسانيات. صدر لها كتاب بعنوان "المعجم العربي ونظرية الطراز" ولها العديد من المقالات المنشورة في مجلّات علميّة محكّمة.

ISBN 978-9920-627-57-3
9 789920 627573

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

الدار البيضاء/بيروت
+212522810406 / بيروت: +9611747422
markazkitab@gmail.com